

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبدالله محمد نوري الديرشوري

جامعة الملك فيصل - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

تأليف:

الأستاذ الدكتور: عبد الله محمد نوري الديرشوي

جامعة الملك فيصل - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد لا يخفى ما للأخلاق والقيم من أهمية في حياة الناس، سواءً في عصرنا هذا، أو في العصور السابقة واللاحقة. فالإنسان لم ولن يستغني عنها البتة؛ بل لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إنها سرُّ إنسانيته، ويقدر توافرها فيه يكون معنى الإنسانية فيه أتم وأظهر، حتى يصل إلى ذروة الكمال البشري، ويكون المثل الأعلى في الحياة، كما كان الشأن في الأنبياء والرسل.

والعكس أيضاً صحيحٌ، فبقدر تجرد المرء منها يكون معنى الإنسانية فيه أضعف، حتى يصل إلى الدرك الأسفل، ويكون شيطاناً في صورة إنسان، لا يقوم لجرائمه وإفساده شيء!

وإذا كان هذا أثر الأخلاق في الأفراد، فإن أثره على الأمم لا يقل أهمية وخطورة أيضاً! إذ إن بقاء الأمم واستمرار الحضارات مرهون بالحق والعدل.

فيقدر ما يسود الحق والعدل والفضائل والقيم، يكون بقاء الأمة، واستمرار حضارتها، ويقدر اختفائها، يكون سرعة زوالها، واندثار حضارتها، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

ولنا الأسم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبَت أخلاقهم ذهبوا
وإذا أدركنا هذه الحقيقة، علمنا السُّر الذي يجعل أعداء الإسلام يحرصون على غزو المجتمعات الإسلامية في أخلاقها وقيمها، ونشر التفسخ والريزية فيها، حيث يعتبرونه الطريق الأسهل والأسرع إلى النيل من وجودها وحضارتها ودينها.

وبالمقابل فإن علماء الأمة ودعاتها ومفكرها، والغيرين على كيانها وحضارتها ومستقبلها، يكرسون جهودهم في سبيل تحسين الأمة ضد تلك المخاطر بالحث على المزيد من التشبث بالأخلاق والقيم التي جاء بها ديننا الحنيف، وما هذا الكتاب إلا امتداداً لتلك الجهود الطيبة المباركة، وهو يستهدف طلبة الجامعة بصفتهم الشريحة الأهم والأخطر في المجتمع.

وقد وزعته على أربع عشرة وحدة دراسية، هي:

الوحدة الأولى: تعريف الخلق وموضوعه وأقسامه ومكانته.

الوحدة الثانية: أسس الأخلاق في الإسلام.

الوحدة الثالثة: خصائص الأخلاق الإسلامية.

الوحدة الرابعة: وسائل اكتساب الأخلاق.

الوحدة الخامسة: الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي.

الوحدة السادسة والسابعة: ناذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

الوحدة الثامنة: تعريف أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها.

الوحدة التاسعة: الأخلاق الجامعة للمهنة وخلق الطهارة المهنية.

الوحدة العاشرة: خلق الاستقامة المهنية.

الوحدة الحادية عشرة: خلق التعاون المهني.

الوحدة الثانية عشرة: خلق الأمانة المهنية.

الوحدة الثالثة عشر: خلق المحبة المهنية.

الوحدة الرابعة عشر: ناذج من مواثيق الشرف أو المهنة.

والله عز وجل أسأل أن يجعله عملاً صالحاً مقبولاً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول، والحمد لله رب العالمين.

الوحدة الأولى

(تعريف الخلق، وموضوعه، وأقسامه، ومكانته في الإسلام)

أولاً: تعريف الخلق:

الخلق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية^(١)، أي ما جُبل عليه الإنسان من الطبع، وجمعه أخلاق.

وهو - أي الخلق - يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخلق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالّ للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكرٍ وروية^(٢)، وبهذا المعنى ورد قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِمَاتٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) مادة خلق، باب القاف، فصل الخاء. لسان العرب، القاموس المحيط.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي: ٣/ ٥٣، وقريب منه تعريف الجاحظ، وابن مسكويه. انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه: ٤؛ نضرة النعمان للشيخ صالح ابن حميد: ٦١/ ١.

وقد يطلق الخلق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل^(١)، وبهذا المعنى ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(٢).

شرح التعريف: التعريف الأخير -نعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني- واضح لا لبس فيه، فالصدق والسخاء والرحمة والعدل وحب الخير للناس؛ جميعها أخلاق حميدة، وفصائل مُسَلِّمة، يسمى مختلفاء الناس للتخلي بها، وتربية أولادهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح، فنقول في بيان ذلك:

قولهم: «حال» أي هيئة أو صفة للنفس الإنسانية، وبهذا الاعتبار يقال: فلان خلقه حميد، أي: الصفة التي في نفسه - وهي التي وراء تصرفاته السلوكية - حميدة.

وقولهم: «راسخة» أي: ثابتة بعمق، وهو ما يعني أنّ الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه، ومن ثمّ كان من يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخلق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه بحيث يصبح عادةً له.

(١) انظر: نضرة النعمان: ٦٣/ ١.

(٢) مسند الإمام أحمد: رقم ٨٩٣٩، وهو حديث صحيح. انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٣٣٣/ ٢٤.

ثانياً: موضوع علم الأخلاق:

ليس جميع ما يستقر في النفس من الصفات من قبيل الأخلاق؛ بل منها ما هو من قبيل الغرائز والدوافع ولا صلة لها بالخلق، وما يميز بين الاثنين هو: أن الأخلاق يبحث في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي يمكن وصفها بالخير أو الشر، أو بالتحسن أو القبح.

وأما الغرائز والدوافع فهي حاجات فطرية، يحلّ الله الإنسان عليها، كحاجته للأكل والشرب والنوم، وهذه لا تستوجب لصاحبها مدحاً أو ذمّاً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ.

فإن حصل ومُدِّح الإنسان أو ذمّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما الطريقة التي اتبعها صاحبها في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة، فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يمدح ولا يذم على نفس فعل الأكل، وإنما يمدح أو يذم على طريقته في الأكل، فإن أكل مثلاً مما يليه، وبهدوء، ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حمّد على فعله هذا، وإن أكل بشراهة، وأدخل اللقمة على اللقمة، وجالت يده في القصعة، ذمّ على فعله ذلك، وهكذا يقال في تعاطيه مع جميع الدوافع والغرائز من شراب وتكاح ونوم وحبّ للمال والولد.

وقولهم: «من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويّةٍ» أي من غير تكلفٍ أو مجاهدةٍ نفس، بل بسهولة ويسر، وبطريقة تلقائية.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلائ حسنُ الخلق والخلق، أي: حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة، وذلك لأنّ الإنسان مركّبٌ من جسدٍ مدركٍ بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة، ولكل واحدٍ منهما هيئةٌ وصورةٌ: إمّا قيحةٌ، وإمّا جميلةٌ، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظمُ قدرًا من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَأَنَّا سَوَّيْتُهُ، وَفَقَعْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَفَعَّوْا لَهُ سَجْدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد»^(١).

(١) إحياء علوم الدين: ٥٣/٣.

ثالثاً: أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:

أولهما: باعتبار الفطرة والاكساب، وينقسم إلى:

١- أخلاق فطرية:

جَئَلَ اللهُ الإنسانَ عليها، أي أنها هبةٌ ومنحةٌ من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها، مثال ذلك ما جاء في حديث أشعج عبد القيس - وكان وافدهم وقائدهم ورئيسهم وعبد القيس قبيلة - حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْجَلْمُ وَالْأَنَاةُ»، قال يَا رَسُولَ اللهِ: أَمَا أَخْلَقْتُ بِهِمَا، أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِنَّ؟ قال: «بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِنَّ» قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ^(١).

قال الإمام النووي: أما الأشعج فاسمه المنذر بن عائذ،... وأما الحلم: فهو العقل، وأما الأناة: فهي الثبوت وترك العجلة،... وسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام الأشعج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته، وليس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم: باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين رقم ١٨٤١، سنن أبي داود: باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، مسند أحمد بن حنبل: رقم ١٧٨٢٨. واللفظ لأبي داود.

وسلم، فقَرَّبَهُ النبي صلى الله عليه وسلم، وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم، فقال: الأشعج: يا رسول الله إنك لم تراول الرجل عن شيء أشدَّ عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن آتبعنا، كان مِنَّا، ومنْ أباي قاتلناه، قال: صدقت، إن فيك خصلتين... الحديث.

قال القاضي عياض: فالأناة: تربيته حتى نظر في مصالحه ولم يعجل، والحلم هذا القول الذي قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب^(١).

٢- أخلاق مكتسبة:

يسمى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»، وفي حديث آخر «وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللهُ»^(٢).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٨٩/١.

(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: رُبُّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، رقم ٦٧.

(٣) صحيح البخاري: باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم ١٣٦١.

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من معنى.

فقد حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة، فالرسول ﷺ أخبرنا أن «الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار»^(١)، وقال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعيتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢)، و«غفر الله ليبي في كلب سقته»^(٣)، و«المرء يبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل، صائم النهار»^(٤).

ويبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعَلِّمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقْتَ عَظِيمًا﴾ [القلم: ٤].

(١) صحيح البخاري: رقم ٥٧٤٣.

(٢) صحيح البخاري: باب خمس من الدواب فواستق يقتلن في الحرم، رقم ٣١٤٠.

(٣) صحيح البخاري: باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم ٢٢٤٥.

(٤) مسند الإمام أحمد: رقم ٤٢٤٣٥٥؛ سنن أبي داود: باب حسن الخلق، رقم ٤٧٩٨. قال محقق

المسند الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

ثانيتها: باعتبار القبول وعدمه شرعاً.

وهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

- ١- خلق محمود:
- وهو حسن الأدب، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلاً وشرعاً.
- ٢- خلق مذموم:
- وهو سوء الأدب، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلاً وشرعاً.

بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق.

وكلا التقسيمين إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً، فالأخلاق لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وفي نفس درجتها ومستواها من الأهمية.

ففي باب العقائد: نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً فيجعل حسن الخلق علامة كمال الإيمان والنفاضل فيه، فيقول ﷺ: «كَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(١)، ويضفي على التوحيد صبغة خلقية، فيعتبره من باب: العدل، وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب: الظلم، وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ أَلْتَمِزَ لُطْمًا عَظِيمًا﴾ [لقمان: ١٣]، وذلك لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها، بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلمًا، فقال تعالى: ﴿وَالكٰفِرُوْنَ هُمُ الظٰلِمُوْنَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وفي باب العبادات: نجد أن الكبرى منها ذات أهداف أخلاقية منصوب عليها بجلاء:

(١) سنن أبي داود: باب الدليل على زيادة الإيمان وتقصانه، رقم ٤٦٨٢؛ سنن الترمذي: باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢. وقال حديث حسن صحيح.

وجعل الرسول ﷺ الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيها يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، ولعله يشير بذلك إلى أنه ﷺ كان المتمم والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بعثوا به من القيم والفضائل، كما أخبر بذلك ﷺ فقال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضِعَ لَبِيٍّ من رَأْوِيَةٍ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: (فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)»^(١).

وحسن الخلق من أكثر الوسائل التي توصل المرء إلى الفوز بمحبة الله ورسوله، والظفر بقرنه يوم القيامة، حيث يقول ﷺ: «إِنَّ من أَحَبِّكُمْ لِي وَأَفْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَتْكُمْ أَخْلَاقًا»^(٢)، ولما سئل «مَنْ أَحَبَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؟» أجاب: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٣).

هذا من حيث مكانة الأخلاق وأهميتها بصورة عامة.
وأما من حيث مكانة الأخلاق بين علوم الشرع فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين يقسمون ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وربما قسمها

(١) صحيح البخاري: باب خاتم النبيين، رقم ٣٣٤٢.

(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم ٢٠١٨. وقال: حديث حسن غريب. إلا أن للحديث روايات أخرى متعددة. انظر: فتح الباري: ٩/ ٦٣.

(٣) للمعجم الكبير للطبراني: رقم ٤٧١. وهو حديث صحيح. انظر: الترغيب والترهيب: ٣/ ٢٧٤ رقم ٤٠٢٥؛ وفيض القدير للمناوي: ١/ ١٧٤.

فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الصَّكَّاءُ تَنفَعِي عَيْنَ النَّفْسَاءِ وَالْمَبْكِرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة مناعب الحياة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتركبة النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، والتقوى جماع الأخلاق الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَا كُنتُمْ تَنفُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُدٌ مَّعَكُمْ فَسِرَّوْاْ فِيهِمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لَفَجٍّ فَلاَ تَرْفَعُواْ رُءُوسَكُمْ وَلاَ تَسُوْاْ وَلاَ تَجِدُواْ فِي الْآخِزِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءً في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ ءَاكُفَّرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتهان العيب، وإنفاق السلعة بالخلف، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث: «لا يجتكر إلا خاطيء»^(١)، أي أثم، وفيه أيضاً: «من غشنا، فليس منا»^(٢)، وفيه: «الخلف منقعة للسلعة، منقعة للريح»^(٣).

وفي مجال الملكية، لا يجلب للمسلم تملك ثروة من طريق خبيث، ولا يجلب له أن يأخذ ما ليس له بحق كأن يأخذه بالعدوان أو الحيلة، ولا يجوز له تنمية ملكه بطريق محرمة، ومن ثم حرم الله الربا والقمار والرشوة، وكل ما يعبد من قبيل أكل المال بالباطل، وحرم كذلك الظلم بكل صوره وأشكاله، والضرر والضرار بكل ألوانه.

وفي مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطفة فقال ﷺ: «اتقوا الله واعبدوا بين أولادكم»^(٤)، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث،

- (١) صحيح مسلم: باب تحريم الاحتكار في الأوقات، رقم ١٦٠٥.
- (٢) صحيح مسلم: باب قول النبي من غشنا فليس منا، رقم ١٠١.
- (٣) صحيح مسلم: باب النهي عن الخلف في البيع، رقم ١٦٠٦.
- (٤) صحيح البخاري: باب الإسهاد في العفة، رقم ٢٤٤٧.

والصدقات المفروضة، والغنائم والفنيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال.

وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ومن هذا الباب تحريم الإسلام لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحريير على الرجال.

وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القادرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالمعهود، قال تعالى: ﴿وَأَيُّ مَخَافَةٍ مِن قَوْمٍ خِشْيَانَةٌ فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يُجِبُهُ الْفَائِزِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَكَو كُنَّا ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْتَدِ اللَّهُ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُواكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال جل في علاه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالْقَوَىٰٓ وَأَلَّافُوا عَلَىٰ الْأَيْمِ وَالْعُدُوْنَ﴾ [المائدة: ٢]، وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي السنة أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصيته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»^(١)، وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون المهديون من بعده، فقد كانوا يوصون قوادهم وأمراءهم عند تسيير الجيوش بتقوى الله، وعدم قتل غير المحارب، وعدم الإفساد والإضرار بالمتلكات، من ذلك ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين بعث جيوشاً إلى الشام، فقد خرج يتبعه ويوصيه، فكان مما قال: «إني أوصيك بعشر؛ لا تقتلن صبياً، ولا امرأةً ولا كبيراً هرمًا، ولا تقطعن شجراً مثمرًا، ولا تحرقن عامراً، ولا تغرقن شاةً ولا بعيراً إلا لأكلية، ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنه، ولا تغلن ولا تجبن»^(٢).

(١) صحيح مسلم: باب تأمير الإمام الأمراء على البعث، رقم ١٧٣١.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة: من ينهى عن قتله في دار الحرب، رقم ٣٣١٦١. وهناك آثار أخرى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في النهي عن قتل الرهبان والخدم والأجراء، والأمر بالرفق

الوحدة الثانية

(أسس الأخلاق في الإسلام)

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية^(١).

أولاً: الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي: الركن الأول: الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق الكون. وخالق الإنسان. وخالق الموت والحياة، والإيمان بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما يدور في خلجات النفس من خير أو شر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ آدَمَ مَوْسَىٰ وَعَفَىٰ وَأَسْقَمْنَا لَهُ قُرْآنَ الْإِنشَاءِ فَرَّغْنَا لَهُ الْكَلِمَٰتِ وَأَقْرَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَاجِدِ فَاسْتَجَبْ لِرَبِّهِ فَكَانَ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [١٦:١].

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن أوجد الإنسان فوق هذه البسيطة هداهم لمعرفة، وعرفهم بطريق الخير والشر، والحق والباطل، من خلال الرسالات السماوية التي أرسلها للبشر. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَهَيَّوْا مِنْهَا حَمِيحًا قَامَا يَا بُنَيَّكُمْ بَنِي هُدًى مِّنْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

(١) انظر هذه الأسس بتوسع في كتاب: علم الأخلاق الإسلامية للدكتور مقداد يلجن: ١٢٤ -

وهكذا فإما من مجال من مجالات الحياة يمكن للمسلم أن يعيشها بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض.

بالفلاحين. انظر نفس المرجع: ٣٣١٣٦-٣٣١١٩ والسنة الكبرى للبيهقي: باب ترك قتل من لا قتال فيه، رقم ١٩٧٢٩-١٩٧٣٩.

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُفْلِحُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَالَ جَبَلٍ مِّنْ حَرَمٍ لَّيُبْسَأَنَّ بِهَا وَكُفَىٰ بِهَا حَسْبًا لِّكُلِّ أَتْبَاطٍ [الأنبياء: ٤٧].

أهمية الأساس الاعتقادي:

هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم -المتعمد على الإيمان بالله، وبرسالاته، وبالحياة الأخرى، والحساب - في غاية الأهمية، بل إنه السند الذي يُعتمد عليه في إقامة النظام الأخلاقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان. بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن، ثم بقدر تمكن هذا الأساس في قلب المؤمن، ورسوخه فيه، وليأمنه الصادق به، يكون الامتثال والتحلي بتلك الفضائل والقيم.

وليس هذا أساساً للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة كلها؛ ومن غيره لا يكون للحياة معنى في الحقيقة.

ودليل ذلك ما نلاحظه في سلوك الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة -الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- حيث القلق والحيرة والاضطراب يستبد بأعماق قلوبهم، وتفكيرهم. وأما المؤمن فهو في طمأنينة ورضا، مهما واجهته من المصائب والمشاكل، ويقدر زيادة إيمانه، وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله وقدره أتم.

عليهم ولا هم يحزنون [البقرة: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَسْرًا وَمَا سَوَّاهَا﴾ [٧] قَالَتْهَا نُجُورًا وَتَقْوَاهَا [الشمس: ٨].

كما أن الله سبحانه وهب الإنسان العقل والفطرة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، من معرفة الله، ومعرفة الحق، ومعرفة الخير والشر.

ومن ثم جاء تكليفهم باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، وكذلك معرفة ما هو محرم عليهم، ومطلوب منهم اجتنابه.

الركن الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إنما نعيم، وإما جحيم، والنعيم لمن اتبع الحق، وأقدم على فعل الخير، واجتناب الشر، والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله.

وكلاهما يكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ مُخِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَّرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال جل جلاله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة: ٧-٨].

إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقُدُورُ﴾ [المالك: ٢]، والحياة الأخرى للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَنُصِّحَ الْمُؤْمِنَ آلِقِسْطَ

ثانياً: الأساس الواقعي:

دعا الإسلام إلى المثالية والسمو الروحي، ودم الذين أخذوا إلى الأرض وشهواتها، إلا أن دعوته إلى المثالية هذه كانت واقعية في نفس الوقت، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين. والنظرتان المتطرفتان هما:

- ١- الدعوات الروحية التي تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة شديدة، وذلك لأنه بهذا الاستعلاء وبهذه المجابهة، يحقق لنفسه السعادة المشودة والسمو الروحي الذي يطمح إليه.
- ٢- الدعوات المادية - أو دعوات الطبيعيين - والتي تدعو إلى الاستسلام للطبيعة، والاستجابة لها، لأن سعادة الإنسان - من وجهة نظرهم - إنما تتحقق من خلال هذه الاستجابة، والإخلاق إلى الأرض، ومن ثم فإنهم يتجاهلون متطلبات الروح.

وأما الإسلام فكان موقفه من الطبيعة وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلّى ذلك في:

- أ- دعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على نفسه، فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وأن يكون كذلك سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

والسر في ذلك هو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب.

وإن مما يؤكد ما سبق أن أولئك الناس - من غير المؤمنين - لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة، والإيمان القويم.

إن اعتداد الأخلاق على هذا الأساس العقدي، يضيف عليها طابعاً مميزاً من القداسة والاحترام، ويوظف في صاحبه الوازع الديني - أو ما يسمى بالضمير - ويجعله أكثر استجابة لفعل الخير، وهذا ما يقر به الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: «الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعلاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحسس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية»^(١).

(١) علم الأخلاق الإسلامية للدكتور بالجن: ١٢٨-١٢٩. وقد نقله عن كتابه تأملات في سلوك الإنسان. ترجمة د. محمد القصاص: ١٤٠.

فالإسلام جاء بشرح كل ما من شأنه احترام حياة الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لتحقيق ما فيه نفعهم.

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثم شرع الزواج، وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١)، كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: «تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكتفاء، وأنكحوا إليهم»^(٢)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٧٧٨، صحيح مسلم، رقم ٢٥٦٦. واللفظ للبخاري.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكتفاء: رقم ١٩٦٤، سنن الدار قطني، كتاب النكاح، باب

المهر: رقم ٣٣١٨، السنن الكبرى للبيهقي، باب اعتبار الكفاءة: رقم ١٢٨٥٥، وهو حديث

صحيح.

ب- دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً: الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية، والتي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليها وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي).

وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً مشروفاً ومطلوباً، كما أنه اعتبر كل سلوك يضاد الحياة، أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقي، ومن ثم فهو مرفوض ومحرم.

ومن هنا كان القتل حراماً؛ لأنه سلوك غير أخلاقي، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، أو التحاسد والتباغض والتدابير، كلها محرمات، ويعتبر سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثم فقد حث الإسلام على العلم، وصلة الرحم، ومحبة الآخرين، والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره. ففي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، وفي آخر: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٢)، فينتلني المصائب بالرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، وأن ذلك هو الخير، وأن الحكمة كل الحكمة فيه، ولو خفي عليه وجه ذلك، فيحيا حياة سعيدة، وهذا ما لا يكون إلا للمؤمن.

كما حرم الإسلام الانتحار، وتعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يضر الإنسان في بدنه أو عقله. قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعُ النَّاسِ وَأَنْتُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْسِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَذَانُ يَجُسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾^(٣) والخبير والأصناف والأذنان يجس من عمل الشيطان فاجتنبوا لعلكم تفلحون

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ قَهْلًا أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿١٠٩﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، ومثل هذه النصوص كثيرة جداً.

وعليه فإن الإسلام يمد الخروج على القوانين تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

(١) صحيح البخاري، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١١٣.

(٢) صحيح مسلم، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٤٢٩.

وسلم: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»^(١).

كما أن الإسلام - من جهة أخرى - منع كل سلوك من شأنه أن يحد أو يعوق استمرار التناسل، كالرهبانية أو الخصاء، لما فيه من المنافاة مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك»^(٢).

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى السعادة، والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، وينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر - من جهة أخرى - كل سلوك يصاد الحياة السعيدة، أو يصاد العقل، بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس، أو متشامهاً قلناً، أو يضر بعقله، أو يجعله مريضاً، أو مستسلماً للجهل والخرافات، فإنها جميعاً تعدُّ سلوكاً غير أخلاقي.

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه وفروجه، رقم ١٠٤١، السنن الكبرى للبيهقي، باب التزويج في التزويج من ذي الدين والخلق الرضي، رقم ١٢٦٠٥، وهو حديث حسن.

(٢) صحيح البخاري، باب تزويج المسر الذي معه القرآن والإسلام، رقم ٤٧٨٦.

الوحدة الثالثة

(خصائص الأخلاق الإسلامية)

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وتعطيها وجودها وطابعها المنفرد والمستقل، وهي:

أولاً: الابتعاد عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما، والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخلق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخلق، وذلك لأن حسن الخلق يقتضي أول ما يقتضي شكر النعم (الإله)، والاعتراف بفضلها، والشاء عليه، والوقوف عند حدوده بامثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخلق، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجمالها ثمرة حسن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾ [المؤمنون: ١-٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَتَّخِذَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَدِيلًا وَهُمْ يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ لَدَيْهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ يُعَذَّبُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (١) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٤) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٥) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٦) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٨)﴾ [المؤمنون: ١-٨]

رابعاً: مراعاة الطبيعة الإنسانية:

وهذا هو الأساس الرابع الذي يبني الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، ونعني به أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روحٌ وجسدٌ، وعقلٌ وشهوةٌ، وقلبٌ ومشاعرٌ وعواطفٌ، وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خلق منه، فينساق للأهواء والشهوات، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقى والمثالية.

ومن ثم فقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، ويصفته الكائن الأشرف على ظهر هذه البسيطة، وبصفته من أتباع خاتمة الرسالات السماوية.

ولا يخفى أهمية هذا الأساس في الدراسات الأخلاقية، لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: (يا أيها الذين آمنوا) ثم يذكر بعد ما يكلفهم به، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]... وقد وضع صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمان القوي، يلد الخلق القوي ختمًا، وأن انخيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»^(١)!

والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «والله لا يؤمنُ والله لا يؤمنُ والله لا يؤمنُ قيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَاقِيهِ»^(٢)، وتجد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثثرة والهدر... وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله»^(٣).

- (١) صحیح الأدب الفرد: ٤٩٩/١ رقم ٤٩٩١، صحیح الجامع الصغير للألباني: رقم ١١٠٣.
- (٢) صحیح البخاری: باب من لا يأمن من جاره بواقفه، رقم ٥٦٧٠.
- (٣) خلاق المسلم: ٩-١٠.

حَاطِبُهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ رِزْقَهُمْ سَخِرًا مِّنْهُمُ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٨﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٦٧-٦٣] من أشكال عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليستغل بتحصيل ما فقدته، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جارهَ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صِيفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقِلْ خَبْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١). وقال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢)، وقال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٣).

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا، دافعة إلى الكرمات، ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير، أو يُفرضهم من شر، يجعل ذلك مقضى الإيمان

- (١) صحیح البخاری: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم ٥٦٧٢.
- (٢) صحیح البخاری: باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.
- (٣) إحياء علوم الدين: ٤/١٠٠.

ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والافتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبتته ومحبة أتباعه^(١).

٢- خلق مع أولياء الأمور: ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبإدخال النصح لهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وكما في رأينا الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وتعني إعانتهم على ما حملوا القيام به من المسؤوليات، وتنبههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوب وألطف عبارة^(٢).

٣- خلق مع عامة المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلل به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَخْتَرُّهُ، يَحْسِبُ امْرِئٌ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَخْتَرَّ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ»^(٣)، وكما في الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ، وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يجب لهم ما يجب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه^(٤).

(١) فتح الباري: ١/ ١٣٨، شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.

(٢) فتح الباري: ١/ ١٣٨، شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.

(٣) صحيح مسلم: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحقاره، رقم ٢٥٦٤.

(٤) فتح الباري: ١/ ١٣٨، شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.

إذا فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة، وهو الرقيب عليها، وهو المقوم لها إذا انحرفت، والدين والأخلاق متلازمان لإقامة أية مدينة فاضلة يطمح إليها الإنسان.

ثانياً: الشمول:

تنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

١- خلق مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين أن خلق المسلم مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل في السمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به. من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، وكذلك تعظيم شعائر الله وتعظيم كتابه، وتعظيم بيوته، وتعظيم حرماته، والنصح لله وكتابه ولرسوله، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ» قلنا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(١)، وتعني أن عباد أمر الدين النصيحة، وتكون النصيحة لله بتقديم حقه على حق الناس، وكتابه بتعلمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه، ولرسوله بتعظيمه

(١) صحيح مسلم: باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٥.

طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الحلقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقي أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسباحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم... الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا تنورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْهَا وَإِلَيْهَاكُمْ وَرُجِعُكُمْ وَإِلَيْكُمْ﴾ [المعنكوبت: ٤٦]، واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]، وحدث أن يهودياً كان له دينٌ على النبي فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُظلمٌ!! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهمّ بسيفه يبغي قتله. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: «أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحسن التقاضي، وتأمرني بحسن الأداء»^(١)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر، قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على

(١) المستدرک للحاکم: ٢/ ٣٧٧ رقم ٢٢٣٧. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٤- خلق مع غير المسلم: وردت نصوص عديدة تين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَنْهَكُوا اللَّهَ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخَرِّجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ يَبْرُؤَهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبٌ لِلظَّالِمِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا من ظلم معاهداً أو اتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً يغير طيب نفساً حقيقته يوم القيامة»^(١).

والمعاهد من يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

٥- خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»^(٢)، وقوله: (ليس منّا) يدل على عظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين ولا على نهجهم ومسلكتهم في الحياة، وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكتهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.

وهناك خلق مع الوالدين، ومع الأبناء والبنات، ومع الزوج والقرابة، ومع الضيف والعلم والصديق، ومع البهائم والجمادات ... وهكذا.

يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام

(١) سنن أبي داود: باب في تعشير أهل الدمة إذا احتفظوا بالتجارات، رقم ٣٠٥٢.
(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم ١٩١٩.

إذا فميدان الأخلاق في الإسلام يشمل البيت والمدرسة والسوق والمسجد والمصنع والتجر، وساحات الحرب، وميادين السياسة، والقريب والبعيد.

ثالثاً: الثبات:

يُقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بالنظام العام للشريعة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم، بل تظل قيماً فاضلة ثابتة، لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية. ولعل السبب الذي يجعل هذه الأخلاق ثابتة هو:

١- أنها مرتبطة بالفطرة البشرية، وهي تتصف بالثبات، كما في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١).

غير أن ذلك وحده لا يكفي، فكم من الأمور التي هي في أصلها تابعة من الفطرة إلا أنها تغيرت وانحرفت بفعل الأهواء والمصالح! ومن هنا جاءت أهمية السبب الآخر.

٢- كونها تابعة من الدين الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير. قال تعالى: ﴿لَا يَلْمِزُكَ أَشَيْءٌ مِّنْ عِلْمٍ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

(١) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩.

نفسه»^(١)، وبهذه النصوص، منع الإسلام أبناءه أن يقتروا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين.

ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٢)...

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها، ولكن النبي أفهمهم ألا دوام للملكم إلا بالخلق وحده... ومن أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»^(٣).

إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها»^(٤).

(١) المسند للإمام أحمد: رقم ٨٧٩٥. وإسناده حسن. انظر: فتح الباري: ٣/ ٣٦٠.

(٢) صحيح البخاري: باب الوصاة بالجار، رقم ٥٦٦٩؛ سنن أبي داود: باب في حق الجوار، رقم ٥١٥٢.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤٦/٢٨.

(٤) خلق المسلم: ٣١-٣٢.

عَاقِبَتُهُمْ فَهَاقُوا بِمِثْلِ مَا عُوفُوا بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُمْ خِزْيٌ لِّبَصِيرَتِكُمْ ﴿١٢٦﴾
[النحل: ١٢٦].

والأخلاق الإسلامية في هذا تختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، إذ إنها مما لا يطبقها معظم الناس، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسام من فعلها نفوسهم لما فيها من تكلف شديد. قال تعالى: ﴿فَأَنْفَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦٠]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(١).

خامساً: الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطٌ بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في تليته لمخالف حاجات الإنسان ورغباته ولكن بعد ضبطها بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير. من ذلك على سبيل المثال:

١- الحكمة: فقد اعتبرها الإسلام فضيلة مطلوبة، وتأتي بين رذيلتين منكرتين، هما: الجبُّ والبكَّة، قال تعالى في الثناء على الحكمة: ﴿يُؤْتِي الْمَعْلَمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والجبُّ هو: المبالغة في

(١) صحيح البخاري: باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم ١١٠٠.

ويتربى على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين القبيلة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

رابعاً: الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها، عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد تطبيقها وتحسينها في حياته.

وأما كونها في الوقت ذاته مثالية أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كعامة الناس. فهو يبدأ يتوق إلى المعالي، وله نفس أبية تسمى دائماً للتخلي بالفضائل والقيم السامية، ففسح الشرع في ذلك.

فإذاً الإسلام راعى بشرعيه استعدادات هذا وذلك، ولم يجعل الناس على ما لا يطيقون، أو ما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه. ومن ثم فقد شرع العدل، بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، غير أنه حثه في الوقت ذاته على الإحسان، بأن يصفح ويتجاوز ويضحي، وهي مرتبة فوق العدل.

قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: ﴿وَلَا جِزْمَ مِّنْكُمْ شَأْنٌ قُوِّرَ عَلَيْكَ إِلَّا تَعْدِيلُ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨٠]، وقال جل جلاله في تقرير مبدأ المثالية والإحسان: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا فَكُنْ عَمَّا رَاحِلٍ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّ

وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام أو أقرها، إلا ونجدها وسطاً تستجيب لدواعي الفطرة في الإنسان، وتحقق له ما فيه المصلحة والخير^(١).

(١) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٧؛ ميزان العمل: ٢٦-٢٩.

الاتصاف بالكر والحيلة وسوء الظن، والبله هو: المبالغة في السداجة والسفه.

٢- السخاء: وهو خلق كريم يقع بين رذيلتين، هما: الإسراف، والتقتير. قال تعالى: ﴿لَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)، وقال: ﴿لَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٣- الشجاعة، وهي خلق كريم ووسط بين رذيلتين هما: التهور، والجبن. والتهور هو: الزيادة في الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْرُوا بِالْيَدِ إِلَىٰ النَّهْكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والجبن هو: المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة. قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

٤- العفة، وهي خلق كريم، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره، والحمود، والشره هو: المبالغة في طلب الشهوة واللذات. والحمود هو: قصور الشهوة عن دفعه نحو تحصيل أسبابها.

٥- الحياء، وهو خلق كريم، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة أو صفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

٦- التواضع، وهو خلق كريم، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الكبر والعلو من جهة، والذلة والحقارة من جهة أخرى.

ذلك البدل، ويطلب نفسه به، ويوظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبح ذلك خلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به جواداً.

ومن أراد أن يُحصَلَ لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبرُ، فطريقه أن يوظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، يجاهد نفسه فيه، ويتكلف إلى أن يصبح ذلك خلقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»^(١)، أي أن من درَّب نفسه وهملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبدائية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله تعالى. مثله في ذلك مثل البدن.

«فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنسوة والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم»^(٢).

(١) صحيح البخاري: باب الاستعفاف عن المسألة، رقم ١٤٠٠، صحيح مسلم: باب فضل

التعفف والصبر، رقم ١٠٥٣.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: ٦١/٣.

الوحدة الرابعة

وسائل اكتساب الأخلاق

ذكرنا فيما تقدم أن من أقسام الخلق ما هو فطري. بمعنى أن في الناس من تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخلق، عالماً مؤدباً بغير معلم أو مؤدب، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضل الله قدوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري، وهناك من الناس من يمنُّ الله عليه ببعض الصفات الخلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أتى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «إن فيك خصلتين يجبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»، فسأل النبي أيهما من كسبه، أم جبهه الله عليهما؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «بل الله جبهك عليهما».

كما أن من الخلق ما هو مكتسب، يُحصِّله المرء بجده واجتهاده، ومن خلال وسائل معينة. يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: التدريب العملي:

إن أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدته لنفسه، وحملها على الأعمال التي يتطلبها الخلق المطلوب.

فمن أراد أن يُحصَلَ لنفسه خلق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تكلف تعاطي فعل الجود - وهو بذل المال - في البدايات، ثم يستمر على

مثيل لها. يؤكد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(١).

وهذا الشعور بلذة الطاعة وكره المعصية يزداد بكثرته المتواصلة والاستمرار، ومن ثمَّ كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله»^(٢)، وهذا ما كان يرغب الأنبياء والصالحين من عباد الله في طول العمر؛ إذ كلما كان العمر أطول، كانت العبادة أكثر، وكان الثواب أجزل، وكانت النفس أركى وأطهر، والأخلاق أقوم وأرسخ.

ثانياً: المجلس الصالح والبيئة الصالحة:

وذلك من خلال حسن اختيار الأصحاب والأصدقاء الذين يكونون عوناً له على فعل الخير، ومجانبة الشر. إذ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن على دين خليله فلينظر أحدكم من خليل»^(٣)، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرّ معاً. كما أن على المرء أن يحرص على مجالسة الصالحين، مجالسة من يُذكره بالله، ويرغبه في عمل الخير، وبها عند الله تعالى، وينفقه من عمل الشر، وما يجلب له السخط والغضب من الله

(١) المسند: رقم ١٤٠٣٧؛ سنن الساجي: باب حب النساء، رقم ٣٩٣٩ و ٣٩٤٠. وسنده صحيح،

انظر فتح الباري: ٣٤٥/١١.

(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم ٢٣٢٩ و ٢٣٣٠. وقال: حسن صحيح.

(٣) المسند: رقم ٨٤١٧؛ سنن أبي داود: باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣؛ سنن الترمذي: باب

٤٥، رقم ٢٣٢٨. وقال: حسن صحيح. وقال النووي في رياض الصالحين (رقم ٣٢١٧): إسناده

صحيح.

ويمكن توضيح ذلك من خلال مثال ملموس من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح (خطاطاً)، فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويوظب عليه مدة طويلة، ويقبل الخطاطين في خطتهم، ويتشبه بهم تكلفاً في البداية، حتى يصير الخط الحسن صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجية دون تكلف.

وكذلك من أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر والتأمل فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس.

فإذاً يكون تكلفُ الفعل الخُلقي ابتداءً، ثم يُصبح طبعاً انتهاءً. وهذا ناتج عن العلاقة المتبادلة بين القلب والجوارح. حيث إن كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلب، ينعكس أثرها على الجوارح، فتتحرك وفقها. وكل فعل يجري على الجوارح، ينعكس أثره على القلب، ويؤثر فيه. فكلُّ منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به^(١).

ومما ينبغي التنبه له أن مرور الزمن وكثرة التدريب يُكوّنان لدى المرء شعوراً باللذة عند تعاطيه لهذا الخلق. وعندها فقط يكون قد أصبح خُلقاً له. فالسخي إذاً هو الذي يشعر باللذة لدى بذله المال، دون الذي يبذله عن كره. والمتواضع هو الذي يشعر باللذة لدى فعله التواضع، ويوظب عليه مواظبة المشتاق^(٢)، وفي عبادته ومناجاته لله يشعر براحة وطمأنينة لا

(١) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/٥٨-٦٠.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/٥٨.

ويصيرك بعبوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق وعاشتها، بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير أو إلى ضده، وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا، وهم مضررة من جميع الوجوه على من صَاحِبَهُمْ، وشَرُّ على من خالطهم، فكَمْ هلك بسببهم أقوام! وكَمْ قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون! ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن أن يوقفه لصحبة الأخيار، ومن عقوبته لعبد أن يتليه بصحبة الأشرار، صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين، صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار تحرمه ذلك أجمع: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يُعْقَلُ يَلْعَنُ الْمُتَكَبِّرُ مَعَ الرَّسُولِ سِيلًا ﴾ (٣٧) يُؤْتِيكَ لِيَّتِي تَوْجَدُ فَلَا تَخَافَنَّهَا (٣٨) لَقَدْ أَصَلَبْتَنِي عَنِ الذُّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَتِ كَلِمَاتٍ لِلإِنْسَانِ حَذُولًا (٣٩) [الفرقان ٢٧-٢٩]، إن أقل ما تستفيد من الجليس الصالح - وهي فائدة لا يستهان بها - أن تكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومعيبك، وأن تنفعل بحجته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، وحجته لك، وتلك أمور لا تباشر أنت مداومتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال

تعالى. وقد مثل الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك بقوله: «مثلُ الجليسِ الصَّالحِ والسَّوءِ كَمِثْلِ الْمِسْكِ وَتَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَاطِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُجْزِيكَ وَإِمَّا أَنْ تَتَبَّاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ يُجْزِيكَ مِنْهُ وَتَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُجْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ يُجَدِّدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١).

يقول الإمام النووي رحمه الله في تعليقه عليه: «في الحديث تمثله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك، والجلس السوء بنافخ الكبير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرَهُ وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»^(٢)، ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله: «اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم. ومثل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك إما هبة، أو بعوض، وأقل ذلك مدة جلوسك معه، وأنت فربير النفس برائحة المسك، فالخير الذي يصيبه العبد من جلسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك، فيحثك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلته الأرحام،

(١) صحيح البخاري: باب المسك، رقم ٥٢١٤؛ صحيح مسلم: باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قراء السوء، رقم ٢٢٢٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧٨ / ١٦.

الحير والصلاح والعلماء والتعبدين الورعين، ومن يُقنّدى بهم ويستغضب بصحتهم»^(١).

ويؤكد هذا المعنى أيضاً قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً أَوْ نَجَسِيَّةً، كَمَتَّلِ الْبَيْهَمَةَ تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَذَعًا؟»^(٢)، فالحديث يبين الدور الكبير، والتأثير البالغ للبيئة المحيطة بالمرء في اكتساب الأخلاق، وأنه كلما كانت البيئة ألتصق بالمرء، وأكثر ملازمة له، كان أثرها عليه أعظم.

ثالثاً: القدوة الحسنة:

الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، فالضعيف يقلد القوي، والصغير يقلد الكبير، والفقير يقلد الغني، من نال إعجابهم، واستحوذوا على رضاه، وهذا أمر واقع ومحسوس في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان، وقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز حال المشركين، ونبه إلى أن الذي قادهم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم للأباء والأسلاف من غير تبصُّر وإعمال للعقل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْتَانَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كُنَّا رَبَّهُمْ لَا نَتَّبِعُونَ سَبِيَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٣) [البقرة: ١٧٠]. فالمنكر عليهم ليس مجرد التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل! ولو كان قائماً على الفكر

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧ / ٨٣.

(٢) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩؛ صحيح مسلم: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨.

ينفك اتصالك بهم، وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله»^(١).

ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة أو الصالحة على المرء، قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ تِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ قَتَلَ عَلَى رَأْسِ فَاتَاءُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةَ تِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدَلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى الْأَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَتَمَّاسًا يَعْبُدُونَ اللهُ فَأَعْبُدِ اللهُ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَانْخَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قط، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَيَجْمَعُونَهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ آدَمِيٌّ فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ آدَمِيٌّ إِلَى الْأَرْضِ النَّبِيِّ آرَادَهُ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»^(٢)، فقد طالبه الرجل العالم بتغيير بيئته الفاسدة، قال النووي: «قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب الموضع التي أصاب بها الذنوب، والأخذ بالمساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهل

(١) هجة قلوب الأبرار وقررة الأبخار: ١٥٦-١٥٧ شرح الحديث ٦٨.

(٢) صحيح البخاري: باب ما ذكر عن نبي إسرائيل، رقم ٢٦٨٢؛ صحيح مسلم: باب قبول توبة القاتل وإن كثرت قتله، رقم ٢٧٦٦.

وإن الأسباب التي تدفع الناس للتأسي بالقذوة في اكتساب الفضائل

كثيرة، منها:

١- القذوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القذوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، فيندفع لتقليده، ومع مرور الوقت يتحول ذلك لديه إلى خلق مكتسب.

٢- إن وجود القذوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمر ممكن، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.

٣- النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فمهما حدث أحدنا الناس على الصبر والتضحية سيقتى تأثيره قليلاً بالفقارة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحدنا، فيظهر الصبر والجلد والتضحية، وكثيراً ما يتردد على الألسن مقولة: (الرجال مواقف)، وموقف واحد قد يرفع المرء أو يسقطه.

إن الناظر في سير العطاء لن يجد لهم بالضرورة خطباً بليغة، أو محاضرات منمقة، وإنما يجد المواقف. فمن ينظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم مثلاً، فإنه سيجد أن أكثر ما يُعرف ويشتهر عنهم، مواقفهم الحاسمة في نصره الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه.

وحسن الاختيار كان مقبولاً، بل مطلوباً كما في سير الأنبياء السابقين عليهم السلام التي قصها الله علينا، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيَتِهِمْ أَخْتَدُوا﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالافتداء بهم في ملاقاتهم لأنواع الابتلاء، وصبرهم على الشدائد، وتحملهم للأذى في سبيل الدعوة، فما كلوا ولا ملوا ولا يسوا^(١)، كما أن الله سبحانه قص علينا كثيراً من جوانب حياة الرسول (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد...) وأثنى على أخلاقه العظيمة، وأمر الأمة المسلمة بالافتداء به عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، لقد اختاره الله قدوة ومثلاً كاملاً للطالحين في الوصول إلى الكمال البشري، ولئن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، فإن سيرته العطرة قد حُفظت لنا، وفيها ما يكفي أن يكون شاهداً على سمو روحه، وكمال نفسه، ورفعة أخلاقه، لنتمكن من التأسي به، وتقوم علينا الحجة.

إن الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتتبع منهم الإعجاب رغماً عنهم، وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذاك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وآخر في كظم الغيظ، وهكذا.

(١) التفسير الكبير للرازي: ١١٦٦/٦.

العابدين، والقادة الأفذاذ الفاتحين، والمرين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التماسيهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رباعاً: الضغط الاجتماعي:

ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذلك، يجتازهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، فإنه سيجد من يجاسبه على سلوكه ذلك، ويشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده، ويوماً بعد يوم مع هذه الرقابة من المجتمع، ومع الضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وسيتهي الأمر باستقامة خلقه.

وما يجدر ذكره أن الضغط الاجتماعي يختلف عن البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها، إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة، وأما الضغط الاجتماعي فهو أعم؛ إذ إنه يمتد ليشمل المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب ومواعظ وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تكتونه من رأي عام من القراء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لحاسبة المنحرف.

إن أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيته ببذل النفس والمال فداءً للرسول صلى الله عليه وسلم ولدعوته. وكذا ثباته على الحق برياطة جأش يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: أيقص الدين وأنا حي، والله لو لم يخرج إليهم أحدٌ لقاتلهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

وإن أكثر ما يُعرفُ من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرَةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: «إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة»^(١).

وما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: «عملٌ رجلٍ في ألف رجل، أبلغ من قول ألف رجلٍ في رجلٍ»^(٢).

إن من واجب المصلحين والدعاة المرين إبراز النهاج الصالحة من أسلافنا من الصحابة والتابعين، وسير العلماء الربانيين، والزهاد الأتقياء

(١) سير أعلام النبلاء للنهبي: ١٩٦/١١. وهو شيخ الإمام البخاري، وكان يقول فيه: ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني.

(٢) التفسير الكبير: ٤٥/٣.

-قوله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ النَّاقِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَغْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا نَحْرُقْنَا فِي نَصِيبِنَا نَحْرُقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِن تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا»^(١).

ومعنى الناقم في حدود الله: المدافع عنها، وهو عكس الواقع فيها. والحديث يؤكد أيضاً مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، حيث يجمعهم مصير واحد، وأن الغرق والهلاك إذا حل بهم فلن يقتصر على البعض دون البعض، بل يشمل الجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبُوا نَفْسَهُ لَأَقْصِيبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خِصَاةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومع مرور الزمن والكف عن الأخلاق السيئة خوفاً من ضغط المجتمع تختفي تلك الأخلاق من حياة أصحابها، ويحل محلها الأخلاق الحميدة.

خامساً: سلطان الدولة:

ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردة، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير

(١) صحيح البخاري: باب هل يفرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٤٣٦١.

وهناك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة توصل لهذه المسؤولية، نذكر منها:

-قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِن أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدُوِّ، فَلَا يَبْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَاهَةً وَشَرِيهَةً وَقَعِيدَةً، فَاتَّأَفَعَلُوا ذَلِكَ صَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فِعْلِهِمْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) كَرِهْنَا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خِلَادُونَ (٨٠) وَكَانُوا يُؤْتَوْنَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ آوِيَّةً وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْعُرْفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ النَّكَرِ، وَتَتَّخِذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَتَتَّطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْضُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَضْرًا»^(١).

فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويكف عن فعله الشائن، وإلا حل بنا ما حل ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.

(١) سنن أبي داود: باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٣٦؛

الوحدة الخامسة

(الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي)

يرتبط كلٌّ من الإلزام والمسؤولية والجزاء ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. بمعنى أن الإلزام يكون أولاً - بأن يفرض الشرع علينا سلوكاً معيناً - فتنبه المسؤولية وتحمل الالتزام، ثم يتبعها الجزاء إما مكافأة أو عقوبة. وفيما يلي بيان موجز بكلٍ منها:

أولاً: الإلزام الخلفي:

تعريف الإلزام الخلفي: الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب، أي ما فرضه الشرع وأوجبه علينا من أمرٍ أو نهي، سواءً أكان ذلك في باب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، أم الأخلاق....

وفي باب الأخلاق يمكن أن يُعرّف الإلزام بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلقي.

أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتنال خُلقي محمود، أو اجتناب خُلقي مذموم.

أي أنه أمرٌ من الله سبحانه، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، للبالغ العاقل، يوجب عليه التحلي بخُلقي محمود كالصدق والعدل ونحوها، أو الابتعاد والتخلي عن خُلقي مذموم كالكذب والرياء ونحوها.

الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إنَّ الله كَبَّرَ بالسلطانِ ما لا يَبْرُحُ بالقرآنِ»^(١)، أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم مينة أو قاسية. وهؤلاء إنما يرددعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يومٍ، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلقي لصاحبه، ويجسُن خُلقه^(٢).

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٠٧ / ٢٨.

(٢) للوقوف على هذه الرسائل بتوسع انظر: الأخلاق الإسلامية للشيخ المدائني: ١ / ٢٠٧-٢٢١.

العوامل الداخلية للإلزام: وتتمثل كما أسلفنا آنفاً في:

١- الإيمان بالله وباليوم الآخر: إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والنصحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَظَمُّوا نَفْسَهُمْ عَلَىٰ خِيبةٍ مَّسْكِينَةٍ وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ إِنَّمَا ظَنَّمُوا لِرُوحِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مَسْكُوتًا ۗ وَلَا شُكْرًا ۗ ﴾ [الإنسان: ٨-٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والأمر بأحسنها، والنهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيها لصاحبه، وانتهاز صاحبه وانتهازها»^(١).

٢- العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقدّم عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجم عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس، وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۗ ﴾ [الملك: ١٠]، يقول ابن القيم رحمه الله: «أما العقل فقد وضع الله سبحانه في

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ٣٠ / ٢٦٥.

مصادر الإلزام الخلقية:

إن مصدر الإلزام الخلقية -كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنِ اتَّخَذْتُمُ اللَّهَ رَبًّا ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال جل جلاله: ﴿ آيَاتُ الْخَلْقِ وَالْآسُرِ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والعقول وإن كانت تدرك أحياناً الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن تدرك أن الصدق حسن، والكذب قبيح، والأمانة حسنة، والحياثة قبيحة، إلا أن مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل، فإن الشرع حتى لله وحده، ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۗ ﴾ [الحشر: ٧]، وقال أيضاً: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۗ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۗ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابة وامتثال لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد. قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ ﴾ [النساء: ١٦٥].

العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع، غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به. وتتمثل في عوامل داخلية: (وهي: الإيمان والعقل والفترة والضمير الخلقية). وعوامل خارجية: (وهي: المجتمع والسلطة الحاكمة).

يقول ابن القيم: «والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأميرين هما أصل السعادة، أحدهما: أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجه عنها...، فإذا تركت النفس وفطرتها لم تؤثر على محبة باربها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيء إليها، وأطوع شيء لها، وأثر شيء عندها»^(١).

٤- الضمير أو الوازع الديني: وتعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أفعال نفوسنا، ينادينا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه، وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فنشعر بالانتباض والألم النفسي (ويسمى بوحز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد^(٢)، وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سني حياته، ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به، ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي، ولعل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «البرُّ حُسْنُ الخلق، والإثم ما حاكَّ في صدرك، وكُرِهت أن يطلع عليه الناس»^(٣)، ما يشير إلى هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال والأقوال،

(١) شفاء العليل لابن القيم: ١٧٣.

(٢) انظر: علم الأخلاق الإسلامية لياجن: ٢٠٨، ٢٢٥.

(٣) صحيح مسلم: باب تفسير البر والإثم، رقم ٢٥٥٣.

العقول والفطر استحسن الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الحق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نواب الحق، وقرى الضيف، وحمل الكل، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفطر استبجأ أصداد ذلك»^(١).

٣- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفطر السوية، وتسمى للتحلي بها، على العكس من أصداد تلك الصفات كالخسّة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفطر السليمة تستبجها وتفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاقِيَ﴾ [الرؤم: ٣٠]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاقِيَ﴾»^(٢).

(١) إغاثة الهمهان لابن القيم: ١٢٨ / ٢.

(٢) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩.

الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف، وهو ما عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بأربع كلمات فقال: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»، وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ولا شك أن الإمام (أو ولي الأمر) لن يستطيع أن يحقق ذلك كله بمفرده، بل لا بد من معاونة الجهاز المشارك له في إدارة البلاد، والذي يمثل بمجموعه السلطة الحاكمة.

خصائص الإلزام الخلفي:

يمتاز الإلزام الخلفي في الإسلام بجملته من الخصائص أهمها:

أ- أنه إلزام بقدر الاستطاعة، فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق التويم.

ب- أنه إلزام بما فيه بُسر على الناس، ويسهل تطبيقه. ومن ثمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتمدها نفوس الناس. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) الأحكام السلطانية: ٥.

ولو لم تكن نصوص الشرع أمراً بها، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهية عنها.

ثانياً: العوامل الخارجية: وتتمثل في:

١- المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشاردين منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كِتَابًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهٍ لَهَا يَاجِدًا وَالزَّانِي يُجَادُّهَا جِدًّا﴾ [النور: ٢]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهه، فإن لم يستطع فليقله، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعايب، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: ﴿وَأَقْبُوا بَنِيكُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ لِيُضِلُّوكُمْ عَنْ آلِهَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢- السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة - والتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه - هو حمل الناس على الالتزام بحدود الشرع

(١) صحيح مسلم: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٤٩.

- ١- البلوغ؛ وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.
- ٢- العقل؛ وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنه لا يعقل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يجتلم، وعن النائم حتى يستيقظ»^(١).

٣- الاختيار: أي أن يكون العمل تابعاً من إرادته، حرّاً مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً على العمل، لم يتحمل صاحبه مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]، فيبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجرد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله وَصَّعَ عَن أُمَّتِي الخَطَأَ والنَّسِيَانَ وما اسْتَكْرَهُوا عليه»^(٢).

(١) سنن أبي داود: باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، رقم ٤٤٠١ - ٤٤٠٣ - ٤٤٠٤، سنن الترمذي: باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، رقم ١٤٢٣. وقال: "حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي من غير وجه عن علي، والعمل على هذا عند أهل العلم". وانظر مختلف رواياته في فتح الباري: ١٢ / ١٢١ - ١٢٢.

(٢) سنن ابن ماجه: باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٤٤ - ٢٠٤٤ - ٢٠٤٤. حسنه النووي. انظر: فيض القدير: ٢ / ٢٢٧؛ كشف الخفاء: ١ / ٥٢٢ - ٥٢٣.

ج- أنه إزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعداء من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حِجٌّ وَلَا عَلَى الأَصْرَجِ حِجٌّ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حِجٌّ﴾ [الفتح: ١٧]، وكما في الترخيص بالنلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

ثانياً: المسؤولية الخلقية

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإزام من طرف، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف الآخر عمّا أُلزم به - وإلا لم يكن الإزاماً، بل اختياراً، ويكون تسميته بالإزام خطأً.

وقد عرفت المسؤولية بأنها: التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً^(١)، أو: تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قول أو عمل أو ترك^(٢).

شروط المسؤولية: ليس كل إنسان مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، بل هناك شروط لا بد من توافرها حتى ترتب المسؤولية على الفاعل، ويمكن إجمالها فيما يلي:

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ٢٤٠-٢٤٤.

(٢) المعجم الوسيط: كلمة (المسؤولية): ٤١١/١.

(٣) انظر: علم الأخلاق الإسلامية: ٢٥٢.

٦- كرون العمل مما يطابق، أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه، وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يجاسبه الله عليه، وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ فِعْلاً أَنْ يُنْفِكَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].^(١)

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى، بمعنى: أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً وحُكِم عليه بالقصاص، لم يجز الاقتصاص من الولد ولو رضي، بل القصاص على القاتل فحسب، ولو شرب رجل خمرًا لم يجلد ولده أو والده عنه ولو طلبوا ذلك ورضوا به، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا لَتَدَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

غير أن هناك مسؤولية أخرى ملقاة على عاتق الفرد، أو مسؤوليات متعددة، منها: المسؤولية التقديرية عن من هم تحت ولايته، كالأب في الأسرة، ومدير المدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في قطعه، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر تحت ولايته. يقول عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٢).

(١) الأخلاق الإسلامية: ١ / ١١٧-١٣٦.

(٢) صحيح البخاري: باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٥٣.

٤- النية، إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية وقصد المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته، ولم يكن ينوي النتيجة التي ترتبت عليه، فإن الله سبحانه يجاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهر عمله. فمن تصدق على فقير ونيته السمعة والرياء فإنه لا ثواب له عند الله، ومن رمى صيداً فأصاب إنساناً، فإن الله لا يؤاخذُه على فعله هذا، ولا يجاسبه على أنه قاتل لإنسان معصوم الدم. وأما نحن في الدنيا فنحكم بظاهر الفعل أو القول؛ لأن النية من الأمور الخفية التي لا يطلع عليها غير الله سبحانه. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفِعْوَ وَلكِن يُوَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ فلو كنتم﴾ [البقرة: ٢٢٥]، واللغو قول: لا والله، بل والله، لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه لتعوده عليه، فهذا لا يؤاخذ، وإنما يؤاخذ من يريد اليمين. عازمٌ عليه قلبه. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١).

٥- العلم بالعمل المطلوب منه وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب، أو إمكانية العلم بذلك، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال، وإلا فلو لم يسأل عن الحكم، ولم يسع لتعلمه، فإنه يؤاخذ قطعاً؛ لأن المرء لا يُعذر بجهله، والجهل عذر في حق من لم تبلغه دعوة الإسلام، ولم يمكنه التعرف عليه، ولا السؤال عنه، ولم يكن منه التقصير، فهذا هو الذي لا يؤاخذُه الله، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

(١) صحيح البخاري: باب بدء الوحي، رقم ١.

باطناً كتأنيب الضمير، وسواءً أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجنج والجرائم، أم في الآخرة كتعقيم الجنة أو عذاب النار.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

وتتمثل في: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

١- الشعور النفسي:

ونعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية - وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه - وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: «من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(١)، وهذا الشعور خاص بالمؤمن، وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ قَوْفَ أَبِيهِ»^(٢).

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٥، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري: باب التوبة، رقم ٥٩٤٩.

ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية - أو التكافلية - وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف^(١)، يقول عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسهه فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

- ١- المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني التزام المرء أمام نفسه وضميره بالإتيان بشيء أو الانتهاء عنه.
- ٢- المسؤولية الاجتماعية: وتعني التزامه تجاه أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
- ٣- المسؤولية الدينية: وتعني التزامه أمام الله تعالى.

ثالثاً: الجزاء الأخلاقي:

تعريف الجزاء الأخلاقي: يُقصد بالجزاء الأخلاقي المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي، سواءً أكان ظاهراً كالسجن والضرب، أم

(١) الأخلاق الإسلامية: ١/ ١٣٩-١٤٢.

(٢) صحيح مسلم: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٤٩.

لِيَأْسَ الْجُوعَ وَالْخَوْفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، وفي الآخرة له نار جهنم وله الإهانة والسخط من الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

٢- العقوبات الشرعية:

وهي العقوبات التي أقرها الشرع لأولئك الذين يتعدون حدود الله. والغاية من هذا الجزاء معاقبة المجرم وردعه، وردع غيره ممن تسول له نفسه فعل مثل ذلك. وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع على جرائم معينة كحد الزنا، والسرقة، والقذف، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وتعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يُعاقبُ بها من ارتكب جناية لم يحدد الشرع لها عقوبة.

٣- الجزاء الإلهي:

ونعني به الجزاء الذي يكون من الله سبحانه في الدنيا أو الآخرة.

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور والنصرة والعزة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال جل جلاله: ﴿ إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهَ يَصْرَفْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وفي الآخرة له الجنة والكرامة، قال تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا ضنك العيش والمصائب من الله، قال تعالى: ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ» [آل عمران: ٣١]، ومن ثمَّ قال النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن نعمة ربه عليه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^(١)، وقال: «أما إني لأخشاكم وأتقاكم لله»^(٢)، ويقول أنس رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً^(٣)، وعن صفيّة بنت حبيبي رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم.^(٤)

ولن نستطيع في محاضرة ولا في عشرات المحاضرات من إعطاء هذا الموضوع حقّه، ولكن ما لا يدرك جلّه، لا يترك كله، ومن ثمَّ فإننا سنكتفي بعرض نماذج من مختلف جوانب أخلاق نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم.

(١) - عبادَة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي عليه الصلاة والسلام كما وصف نفسه، أتقى الناس وأخشاهم لله، وأكثرهم عبادة وتألهاً، فمن كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه كان شاكرًا لرّبه، تقول عائشة رضي الله عنها: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه

(١) كشف الخفاء: رقم ١٦٤، وقال: إسناده ضعيف لكن معناه صحيح على ما قاله ابن كثير وغيره.

(٢) سبق ترجمته، رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح البخاري: باب الكنية للصبي، رقم ٥٨٥٠. صحيح مسلم: باب جواز الجماعة في التناقل، رقم ٦٥٩.

(٤) المسند لأبي يعلى: رقم ٧١٢٠، المعجم الأوسط للطبراني: رقم ٦٥٧٨. وسنده حسن. فتح الباري: ٦/ ٥٧٥.

الوحدة السادسة

نماذج لجوانب من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم:

قال الله تعالى مادحاً نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ كُنَّ عُثْيُ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وحين سأل سعد بن هشام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، قالت: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق نبيي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن^(١).

أي أن أخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تجسداً عملياً لما جاء به القرآن الكريم من أوامر ونواهي، فكان يرضى لما يرضى الله، ويستخط لما يستخطه. فهو الذي اختاره الله سبحانه ليكون أسوة ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهو الذي وصفه الله بأنه بالؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قال الله فيه: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن نَفْسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وزكى الله لسانه فقال تعالى: ﴿وَمَا يَطْبِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

[التّجيم: ٣]، وزكى صدره، فقال: ﴿الَّذِي نَزَّحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١]،

وزكى هديه ومنهجه فقال: ﴿وَإِلَيْكَ نُهَيْدُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ

(١) صحيح مسلم: باب جامع صلاة الليل، رقم ٧٤٦٠.

وكان من شدة خشيته لله يُسمع لجوفه وهو يصلي أزيز كأزيز المرحل من البكاء^(١)، حتى لكانه يعاين الحساب، وكان يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(٢)، وكان يكثر من الصيام، تقول عائشة رضي الله عنها: كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهر قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً^(٣)، وكان يُكثر من الصدقة فلا يكاد يُسك على شيء، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل ليلة من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة^(٤)، وكان مع كل ذلك ينظر إلى عبادته وشكره لله فيرى نفسه مقصراً في جنب الله، فيزداد تقرباً من الله وشكراً له، وكان يقول في بيان ذلك: «إنه يُعَانُ على قلبي، وإنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في اليَوْمِ مائةَ مرَّةٍ»^(٥).

الغين هو الغشاوة الخفيفة أو الفتور، أي أنه صلى الله عليه وسلم لكمال عبوديته لله، ولكمال محبته وشكره له، كان يرى من نفسه التقصير

من الاختصار. انظر: باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم ٧٧٢. وعند مسلم عن ابن مسعود أيضاً: رقم ٧٧٣.
(١) المسند: رقم ١٦٣١٢؛ سنن النسائي: باب البكاء في الصلاة، رقم ١٧١٤. قال النووي في رياض الصالحين (رقم ٤٥٠): حديث صحيح.
(٢) صحيح البخاري: باب الصدقة في الكسوف، رقم ٩٩٧.
(٣) صحيح البخاري: باب صوم شعبان، رقم ١٨٦٨.
(٤) صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحى، رقم ٦.
(٥) صحيح مسلم: باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم ٢٧٠٢.

الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١)، ويصف لنا بعض الصحابة صوراً من عبادة الرسول عليه الصلاة والسلام، نُحْيِي لنا بعض جوانب حالته -بأي هو وأمي- مع ربه، وبعض معنى قوله: «أما إني لأخشاكم وأتقاكم لله»، من ذلك:

ما يرويه حذيفة بن اليمان قال: لَقِيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بعد العَمَّةِ، فقلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائذْنِ لِي أَنْ أَعْبُدَ بِعِبَادَتِكَ، فَذَهَبَ وَذَهَبَتْ مَعَهُ...، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَأَسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ قَرَأَ قَائِمَةَ الْكِتَابِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ لِأَيِّمِرَ بِأَيِّ رَحْمَةٍ إِلَّا سَأَلَ، وَلَا آيَةَ خَوْفٍ إِلَّا اسْتَعَاذَ، وَلَا مَثَلًا إِلَّا فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ»، وَيُرَدِّدُ فِيهِ شَفِيئَتَهُ حَتَّى أَظُنُّ أَنَّهُ يَقُولُ وَيَحْمِدُهُ، فَمَكَثَ فِي رُكُوعِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» وَيُرَدِّدُ شَفِيئَتَهُ فَأُظِنُّ أَنَّهُ يَقُولُ وَيَحْمِدُهُ، فَمَكَثَ فِي سُجُودِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ نَهَضَ حِينَ فَرَغَ مِنْ سَجْدَتَيْهِ، فَتَرَأَى قَائِمَةَ الْكِتَابِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ آلَ عِمْرَانَ لِأَيِّمِرَ بِأَيِّ رَحْمَةٍ إِلَّا سَأَلَ، وَلَا آيَةَ خَوْفٍ إِلَّا اسْتَعَاذَ، وَلَا مَثَلًا إِلَّا فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ كَفَعْلِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَمِعْتُ النَّبَاءَ بِالْقَبْرِ، قَالَ حَذِيْفَةُ: فَمَا تَعَبَّدْتُ عِبَادَةَ كَأَنَّكَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا^(٢).

(١) صحيح البخاري: باب قوله تعالى: {لينظر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، رقم ٤٥٥٧.
صحيح مسلم: باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم ٢٨٢٠.
(٢) بقية الباحث عن زوائد مسند الحارث المهدي: ٢٤١/٣٤٦١، رقم ٢٤١، ومسلم في صحيحه بشي

لأهلهم»، قال: «أفتنجه لابنتك؟»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يجيونه لبناتهم»، قال: «أفتنجه لأختك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يجيونه لأخواتهم»، قال: «أفتنجه لعمتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يجيونه لعاهتهم»، قال: «أفتنجه لخالتيك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يجيونه لخالتيهم»، قال: فوضع يده عليه. وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.^(١)

وهكذا نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يُعْتَفَ على الشاب، ولم يعاقبه، بل دغدغ عواطفه، وحرك الغيرة فيه، فاستجاب له الشاب وسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد! فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه، مه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُرْمَوْه، دعوه». فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه، فقال له: «إن هذه المساجد لا تُصَلِّحُ لَيْتِيءٍ من هذا البول ولا القدر، إنما هي لِيَذُرَّ اللهُ عز وجل وَالصَّلَاةَ وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ»، قال: فَأَمَرَ رَجُلًا من الْقَوْمِ قَبَاءً يَدُلُّو من مَاءٍ فَسَنَّهُ عَلَيْهِ.^(٢)

(١) المسند، رقم ٢٢٢١١. قال حقه الشيخ شعيب الأرنؤوط. إسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٥١٧٩؛ صحيح مسلم، رقم ٢٨٥.

بمجرد الغفلة أو الفتور عن ذكر الله لأبي أمرٍ كان، وكان يُعَدُّ ذلك ذنباً فيستغفر عنه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان في حالة ترقّي دائم من كمال إلى كمال. وكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة.^(١)

(٢) -خلق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة:

كانت دعوته عليه الصلاة والسلام لجميع الخلق، وكان همه وتفكيره منصّبين على كيفية إدخال الهداية إلى قلوبهم، وكان شديد الحزن والأسى لإعراضهم حتى عاتبه الله على ذلك في مواضع متعددة من كتابه العزيز كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبُحَّ نَفْسِكَ عَلَى كَأْتَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أي: لعلك يا محمد مُهْلِكُ نَفْسِكَ وَقَاتِلُهَا حَسْرَةً وَأَسَفًا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ؟ أَي: لَا يَعْظُمُ حَزَنُكَ وَأَسْفُكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ^(١)، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يُعَلِّمُ الْمُخْطِئَ وَالْمُسِيءَ بِأَحْسَنِ أُسْلُوبٍ، وَالطَّفَّ عِبَارَةً، وَفِيهَا يَلِي صَوْرٌ مِنْ ذَلِكَ:

-روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه. وقالوا: مه، مه، فقال له: «ادنه»، فدنا منه قريباً. قال: «أخيه لأهلك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يجيونه

(١) فتح الباري: ١١ / ١٠١-١٠٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٦١ / ٦٧؛ تفسير القرطبي: ٣٤٨ / ١٠.

عليه وسلم سيكون رحمة للبشرية جميعها في الحياة الآخرة، حيث شتملهم شفاعته الكبرى لإراحتهم من هول الموقف وبدء الحساب.^(١)

وعندما طلب منه بعض أصحابه أن يدعو على المشركين أجابهم بقوله: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة»، وعلى الرغم من إيذائهم له في غزوة أحد حيث كسروا ربايعته وشجروا رأسه وسال الدم على وجهه الشريف فإنه لم يدع عليهم^(٢)، بل كان يسمح للدم عن وجهه الشريف، ويقول لأصحابه بأن نبياً من الأنبياء تعرض لمثل هذا، فلم يقل سوى: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٣)، وحين سألتها السيدة عائشة رضي الله عنها هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «نعم؛ يوم العقبة، حين جاءه جبريل وملك الجبال عليها السلام، وقال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بَلْ أُرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَانِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»^(٤).

- (١) صحيح البخاري: باب كلام الرب يوم القيامة مع أنبيائه وغيرهم، رقم ٧٠٧٢.
- (٢) صحيح مسلم: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٢٥٩٩.
- (٣) صحيح مسلم: باب غزوة أحد، رقم ١٧٩١.
- (٤) صحيح البخاري: باب إذا عرض الدمى وغيره بسب النبي ولم يصرح، رقم ٦٥٣٠.
- (٥) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت، رقم ٣٠٥٩.

ومعنى لا تزرموه: لا تقطعوه، ودعوه يكمل، فعلى الرغم من أن المسجد بيت الله تعالى، ويجب تعظيمه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الأعرابي يكمل بوله، ثم علمه برفق، من غير تعنيف ولا إيذاء؛ لأنه دافعه إلى ذلك لم يكن الاستخفاف أو العناد، بل الجهل^(١)، ولو عنب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنكار لربما كان ذلك سبباً في صلته عن دين الله، وحرمانه من الهداية، وفي هذا درس بليغ لنا في الدعوة إلى الدين بالرفق واللين، وحسن القول والمعاملة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ مَا تَنبَغِي ۚ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٢]، وقال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَضَيْنَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(٣) - رحمة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة من الله للناس كافة؛ مؤمنهم وكافرهم، صالحهم ومسيئهم، وذلك بما حمّله من هداية وتشريع وإرساء لقيم الحق والعدل. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، بل جعل الله وجوده صلى الله عليه وسلم بين ظهري قومه ضمانة أمان لهم من الهلاك في الدنيا على الرغم من بقائهم على شركهم وعدم إيمانهم بدعوته. وما ذلك إلا لكرامته على الله. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِأَلَمٍ لِّعَالَمٍ﴾ [الأنفال: ٣٣]، كما أنه صلى الله

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٩١/٣.

وقد بلغ من رحمة صلى الله عليه وسلم بأمته أن سأل الله أن يجعل سببه ولعنه من أغضبه رحمة، فقال: «اللهم إنما أنا بشر فأبي المسلمين كعتقه أو سببته فأجعل له زكاة وأجرًا»^(١).

نعم؛ فلقد ملأ قلب محمد رحمة، فقال تعالى: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبلغ من شففته ورحمته بأمته أن دعا على ولاية الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً، فشقّ عليهم، فاشقّق عليهم، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به»^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم في بيان فضل الرحمة والحث عليها: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء»^(٣).

وفما يلي نقوم بعرض مشاهد من رحمة عليه الصلاة والسلام:

- أمره عليه الصلاة والسلام من أم في الصلاة بأن يخفف شفقة ورحمة بالمصلين ورعاية لأحوالهم، فلقد جاءه رجل، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ مما يطيل بنا، قال أبو مسعود -راوي الحديث-: ما رأيته غَضِبَ في موضعٍ كان أشدَّ غَضَباً منه يومئذٍ، ثم قال:

(١) صحيح مسلم: باب من لعنه النبي صلى الله عليه وسلم أو دعا عليه، رقم ٢٦٠٠.

(٢) صحيح مسلم: باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم ١٨٢٨.

(٣) المسند: رقم ٦٤٩٤؛ سنن الترمذي: باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم ١٩٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

«يا أيها الناس إن منكم متفرقين، فمن أمّ الناس فليجوز، فإن خلّقه الضعيف والكبير ودا الحاجّة»^(١).

- بكاؤه عليه الصلاة والسلام على ولده إبراهيم عند مماته في مجتمع كان يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجال، وربما منافياً للقيم التي جاء بها الدين من المروءة والقوة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان الثوري، وكان ظنراً لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يحود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتدقان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٢).

فبين عليه الصلاة والسلام أن هذا البكاء رحمة، ومما تقتضيه الفطرة السليمة، وأن الممنوع إنما هو السخبط من قضاء الله وقدره وعدم الرضا بأمره! وهذا شأن الكافر، وأما الحزن والوجد على فقد الولد والحبيب مع الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، فهو رقة في المشاعر، ورافقة في

(١) صحيح البخاري: باب من شكا إمامه إذا طول، رقم ٦٧٢. وفي (٦٧٣) أن الإمام معاذ بن جبل.

(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم إننا لك لمحزونون، رقم ١٢٤١.

وأمن به، وكذلك آمن أتباعه بما جاء به^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم»^(٢).

يقول الماوردي رحمه الله في خصاله صلى الله عليه وسلم: الخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريف في قول، واسترسال في خير يكون إلى الكذب منسوباً، وللصدق مجانياً، فإنه لم يزل مشهوراً بالصدق في خبره فاشياً وكثيراً حتى صار بالصدق مرموقاً، وبالأمانة مرسوماً. وكانت قريش بأسرها تتيقن صدقه قبل الإسلام، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذبه حسداً، ومنهم من كذبه عناداً، ومنهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً، ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجلعوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصدق في صحفه، كان له في الكبر الزم، ومن عصم منه في حق نفسه، كان في حقوق الله تعالى أعصم. وحسبك بهذا دفعا لجاحد، ورداً للمعانيد^(٣).

ولقد علم القاضي والداني صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قومه حتى إنهم لقبوه بالصادق الأمين وذلك قبل إعلان دعوته، وقبل إعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم، وفيما يلي صورتان تؤكدان هذه الحقيقة:

(١) تفسير القرطبي: ١٥ / ٢٥٦ / تفسير ابن كثير: ٤ / ٥٤.

(٢) صحيح البخاري: باب نبي النبي صلى الله عليه وسلم على التحريم، رقم ٦٩٣٣.

(٣) أحلام النبوة: ٢٩٤.

القلب، يجها الله من عبده المؤمن، لما فيها من إظهار العبودية والافتقار إلى الله.

- ومن صور رحمته عليه الصلاة والسلام أنه كان ذات مرة يقبل سبطه الحسن بن علي رضي الله عندهم والأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قتلت أحداً! فَنظَرَ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»^(١)، وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي الذي قال: تقبلون الصبيان! فما تقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو أمك لك أن تزغ الله من قلبك الرحمة»^(٢).

وهذه المشاهد أوردناها من باب التمثيل، وإلا فسيرته العطرة كلها مشاهد لرحمته، ويغني عن ذلك كله قول الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) [التوبة: ١٢٨].

(٤) - صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

كان الصدق سمة أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله وإيمانه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جاء بالقرآن

(١) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبله ومعاقبته، رقم ٥٦٥١.

(٢) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبله ومعاقبته، رقم ٥٦٥٢.

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١)، فهذا الخبر يمجّد نظره إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أنه ليس بوجه كذاب، فأمن به وبدعوته، وأعلن إسلامه.

(٥) - شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

لعل أهم وأبرز ما تتجسد فيه شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ الدين الحنيف وعقائده، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آباؤهم وأسلافهم. وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم سيسعون لإيذائه بكل أصناف الأذى، وسيعملون عليه وعلى أتباعه حرباً مفتوحة، يجندون لها كل طاقاتهم، ولكنه لم يبه بكل ذلك، فصدع بالحق ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا نُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، وجهر به، وضرب بذلك أروع الأمثلة لأُمَّته في الجهر بالحق، وعدم مهادنة أهل الباطل ﴿وَدَوَّأَوْا نُدْهَنَ فَيُدْهَشُونَ﴾ [القلم: ٩]، مهما تحزبوا وجندوا لحربه^(٢).

يقول سيدنا علي رضي الله عنه - وهو من هو في بطولته وشجاعته -:
«كُنَّا إِذَا حَمَّرَ النَّبَأُ، وَتَقَيَّ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، التَّقِيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ»^(٣)، ويقول أيضاً: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نُلَوِّدُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا

(١) سنن الترمذي: باب ٤٢، رقم ٢٤٨٥. وقال حديث صحيح.

(٢) السيرة النبوية للصلاحي: ٢٢٧.

(٣) المسند: رقم ١٣٤٧. قال محققه: إسناده صحيح.

- اعتراف أعدائه بصدقه قبل إعلانه لدعوته: فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنها، قال: لما نزلت الآية ﴿وَأَذِئْرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صدع النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو هب وقريش فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم كتم مصدقني؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو هب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتمنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [التبت يدا أبي لهب وتب] [المسد: ١]^(١).

فانتزع صلى الله عليه وسلم منهم الاعتراف بصدقه، وجعلهم يثرون به على رؤوس الأشهاد، وأقام الحجج عليهم، ثم أخبرهم بأنه رسول الله إليهم، فأبهتهم بذلك! وهذا من عظيم فطنته.

- شهادة الخبر اليهودي عبد الله بن سلام رضي الله عنه: حيث قال: «لَا قَدِيمَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَنْجَلَّ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِيمَ رَسُولِ اللَّهِ، قَدِيمَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَنْبَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَرَفْتُ أَنْ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمْتُ بِهِ أَنْ قَالُ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ بِنَامٍ،

(١) صحيح البخاري: باب وأذير عشيرتك الأقربين، رقم ٤٤٩٢.

- موقفه صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فمن سيدنا العباس رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمنا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نقارقه. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهدأها له قروه بن ثقاته الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مديري، فطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته فيل الكفار، قال عباس: وأنا أخذ يلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن لا تسرع، وأبو سفيان أخذ يركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي عباس؛ ناد أصحاب السمرية»، فقال عباس: وكان رجلاً صبيهاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرية، قال: فوالله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا ليتك، يا ليتك، قال: فافتلوا والكفار...^(١)

وفي بعض الروايات أن رجلاً قال للبراء بن عازب رضي الله عنهما: أفررتُم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً وماء، وأنا لما لقيتهم حملنا عليهم فأنزموه، فأقبل المسلمون على الغنائم، واستقبلونا بالسهم، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر، فلقد رأيتُه وإته لم يلب بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان أخذ يلجامها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا النبي لا

(١) صحيح مسلم: باب في غزوة حنين، رقم ١٧٧٥.

إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»^(١)، وقد ورد مثله عن غيره من الصحابة أيضاً.

ومن صور شجاعته صلى الله عليه وسلم:

- سبقه لكشف الأخبار عند الفرع: فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس. ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس فيل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لا يي طلحة عزي في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا أم تراعوا»، قال: «وجدناه بحراً أو إته كبحر»، قال: وكان فرساً ييطاً^(٢)، أي أن الفرس وإن كان معروفاً ببطئه لكني وجدته سريعاً، ومن ثم سبقتم إلى الصوت، وليس هناك ما يخيفكم، فارجعوا إلى بيوتكم مطمئنين.

قال النووي معلناً على الحديث: وفيه فوائد، منها: بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس، وفيه بيان عظيم برهته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أن كان ييطاً، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: وجدناه بحراً، أي: واسع الجري^(٣).

(١) المسند: رقم ٦٥٤. قال محققه: إسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم: باب في شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٠٧.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥ / ٦٧-٦٨.

عليكم اليوم يغفر الله لكم»، فخر جواه فباعوه على الإسلام.^(١)

-عفوه عليه الصلاة والسلام عن من همّ بقتله بعد أن أمكنه الله منه: فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غرّأ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد، فلما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله معه، فأدركتهم القاتلة في وادٍ كثير العُصاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة، وعلّق بها سيفه، ونمناً نومة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوناً، وإذا عنده أعراي. فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يدي صلتاً، فقال: من يمتك متي؟ فقلت: الله. فها هو ذا جالس»، ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلس^(٢).

ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عن يوم العقبة وما لاقاه من مشركي قريش، فأرسل الله إليه جبريل وملك الجبال عليها السلام وعرضوا عليه أن يطبق عليهم الأحسين، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى وقال: «بل أزوجو أن يخرج الله من أضلاؤهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(٣). فعفا عنهم، رغم الصدد والإيذاء الذي لقيه منهم.

وغيرها من الصور كثيرة جداً تخر بها كتب السنة والسيرة النبوية لا يتسع المقام لذكر المزيد منها، وحرصنا هو التمثيل والتدليل فحسب.

(١) سنن النسائي: قوله تعالى: جاء الحق وزهق الباطل، رقم ١١٢٩٨؛ السنن الكبرى للبيهقي: باب فتح مكة، رقم ١٨٠٥٤.

(٢) صحيح البخاري: باب من علّق سيفه بالشجر في السفر عند القاتلة، رقم ٢٧٥٣، ٣٩٠٥.

(٣) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فرأقت، رقم ٣٠٥٩.

كذب أنا بن عبد المطلب»^(١).

أي أنه صلى الله عليه وسلم لشجاعته، وعظيم ثقته بالله تعالى، وفي اللحظة الخامسة من المعركة، وقد انكشف أعدائه، وانهمز من حوله، كان يناديهم بأعلى صوته متحدياً لهم، أنا النبي حقاً، لا أفتر، ولا أزول من مكاني. وكان يعرفهم بنفسه بأنه ابن عبد المطلب لأنه شهرته بذلك كان أكثر^(٢).

(٦) -عفو النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم متخلقاً بالعفو في أكمل صورته استجابة لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ولعل من أروع تلك الصور:

- عفوه عليه الصلاة والسلام عن أهل مكة المكرمة بعد الفتح، مع شدة إيذائهم له ولأصحابه، واضطهادهم، وملاحقتهم إلى الجبشة، والاستيلاء على ديارهم وأمواهم التي تركوها خلفهم في مكة إبان هجرتهم. ولكنه عليه الصلاة والسلام حين دخلها فاتحاً، وأمكنه الله من رقابهم، وقف فيهم خطيباً وقال: «يا معشر قريش؛ ما تقولون؟» قالوا: نقول: ابن أخ، وابن عم، رحيم كريم، ثم أعاد عليهم القول، فقالوا مثل ذلك، قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: «لَا تَتْرِبَ

(١) صحيح البخاري: باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم ٢٧٠٩.

(٢) شرح التوروي على صحيح مسلم: ١١٩-١٢٠.

النبوي: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»^(١)، ثم تلا جرير: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِبِئَارٍ﴾ [ق: ٤٥].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويحيب دعوة المملوك ويركب الحمار، ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه جبل من ليف، وتحتة إكاف من ليف^(٢).

- وكان ينهى عن مدحه، وإلقاء أنفاب التفخيم عليه كما هو شأن أهل الدنيا، ويقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»^(٣)، فأعظم أوصافه وأحبها إليه؛ هو ما جاء به الشرع، وتعبّدنا الله به، كما في التشهد.

- وكان يُجذر من الكبر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِقْلَالٌ ذَرَّةً مِنْ كِبَرٍ»، قال رجلٌ: «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوَهُّجَةً حَسَنًا، وَتَعَلُّهُ

(١) سنن ابن ماجه: باب القديد، رقم ٣٣١٢؛ المعجم الأوسط: رقم ١٢٦٠؛ المستدرک: رقم ٣٧٣٣، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/٤٢١): إسناده صحيح.

(٢) سنن ابن ماجه: باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم ٤١٧٨؛ سنن الترمذي: باب ٣٢ رقم ١٠١٧ وقال: في سننه مسلم بن كيسان الأعمور وهو يُصنّف. المستدرک: رقم ٣٧٣٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه الحمار في صحيح البخاري: باب الردف على الحمار، رقم ٢٨٢٥.

(٣) صحيح البخاري: باب {واذكر في الكتاب مريم...}، رقم ٣٢٦١.

الوحدة السابعة

(جوانب أخرى من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم)

(٧)- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم :

التواضع خلق رفيع، وصفة للمترفع عن حظوظ نفسه، المستسلم للحق، المقر بأن كل ما فيه من خلال حميدة إنما هي من الله، وأن ما به من نعيم المال أو الجاه أو السلطان أو العلم إنما هي من فضل الله عليه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الكامل للإنسانية في هذا الخلق، وكل من يقرأ سيرته العطرة يقف على تواضعه الشديد مع الخلق، فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يتميز عن أصحابه بهيئة أو لباس أو مكان جلوس أو غير ذلك مما يتميز به وجهاء الدنيا، يُحيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير، ويجلس على الأرض، ويأكل على الأرض ويجلب الشاة^(١)، ويعود المرضى، ويقبل عذر المعتذر. يدخل عليه الرجل ممن لا يعرفه فيسأل أياكم محمد؟ والنبي بين ظهرانيهم، فلا يعرفه حتى يجيبونه: هذا هو^(٢).

ونذكر فيها يلي صوراً من تواضعه صلى الله عليه وسلم:

- روى جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً، فكلمه فجعل تُرعدُ فرائضه، قال جرير: فقال له

(١) المعجم الكبير للطبراني: رقم ١٢٤٩٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٠): إسناده حسن.
(٢) صحيح البخاري: باب ما جاء في العلم، رقم ٣١٣.

حَسَنَةً. قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ حَيْبُ الْجَمَالِ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَعَمَطُ النَّاسِ»^(١)، وبطْر الحق: يعني دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، وعمط الناس: يعني احتقارهم، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بين المعنى الصحيح للكبير، ووضح المفهوم الخاطئ الذي يعتقد بعض الناس إلى يومنا هذا - إذ يعتبرون الاهتمام بالمظهر وليس الجيد والجميل من الثياب والنعال من الكبر - فيبين أن ذلك ليس منه، ولا يتنافى مع خلق التواضع، بل هو مما يحبه الله تعالى، وأما الكبر فهو عدم الاستسلام للحق، وازدراء الناس.

- لقد بلغ من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبته في جبر الخواطر أن قال: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجِبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»^(٢)، والكرَاع: أقل شأناً من الذراع، وهو ما استدق من ساق الغنم، كناية عن الشيء الخفير.

قال الحافظ ابن حجر: «الحديث دليلٌ على حُسن خلقه صلى الله عليه وسلم، وتواضعه وجبره لقلوب الناس، وعلى قبول الهدية، وإجابة من يدعو الرجل إلى منزله، ولو علم أن الذي يدعو إليه شيء قليل»^(٣).

وليس هذا مجرد قول من النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل دُعي حقيقة إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجاب^(٤) من غير تردد، والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث، ودعاه خيَّاطٌ ذات

(١) صحيح مسلم: باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١.

(٢) صحيح البخاري: باب القليل من الهبة، رقم ٢٤٢٩.

(٣) فتح الباري: ٩/ ٢٤٦.

(٤) المسند: عن أنس رقم ١٣٨٨٧. وقريب منه في البخاري: باب شراء النبي بالنسيئة، رقم ١٩٦٣.

يوم لَطَعَامُ صَنَعَهُ قَالَ أَنَسٌ: فَذَهَبْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَرَبَّتُ خَبْرَ شَعِيرٍ، وَمَرَقًا فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّبِعُ الدُّبَّاءَ مِنَ حَوَائِجِ الْقَضَعَةِ، فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ بَعْدَ يَوْمَيْهِ^(١).

(٨) - زهد النبي صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، خَيْرُهُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا نَبِيًّا، أَوْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا^(٢)، كان ينام على الفراش تارة، وعلى النطع - أي الجلد - تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة على رماله، وتارة على كساء أسود. وكان فراشه أدمًا، حشوه ليف^(٣)، وكان له مِسْحٌ - أي لباس من شعر أو ثوب خشن - ينام عليه، يثنى بثنتين، وثني له يوماً أربع ثياب، ففهامهم عن ذلك وقال: «ردوه إلى حاله الأول فإنه منعني صلاتي الليلة»^(٤).

- قال أنس بن مالك رضي الله عنه: دخل عمر وناس من الصحابة، فأنحرف النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى عمر أثر السرير في جنبه،

(١) صحيح البخاري: باب المرق، رقم ٥١٢٠.

(٢) سنن النسائي: باب الأكل متكئا، رقم ٦٧٤٣؛ السنن الكبرى للسيهتي: باب ما روي عنه في قوله: أما أنا فلا أكل متكئا، رقم ١٣١٠٥؛ المسند: رقم ٧١٦٠ وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) صحيح مسلم: باب التواضع في اللباس، رقم ٢٠٨٢.

(٤) الشاغل المحمدية للترمذي: ٢٧٠؛ زاد المعاد: ١/ ١٥٥.

وليس هذا فحسب؛ بل تقول السيدة عائشة: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض^(١).

وليس هذا عن قلة، ولعدم توافر المال بين يديه! بل لساحة نفسه، ومزيد ثقته بربه^(٢)، ولإعراضه عن الدنيا، وإيثاره لغيره على نفسه؛ وإلا فقد عرض عليه أن يكون ملكاً نبياً كما أسلفنا، ولو رغب في المال لوجد فيها بين يديه من أموال الغنائم والفيء ما يلبي حاجته ليس لأيام فحسب، بل لأشهر وسنين، ولكنه كان يؤثر ما عند الله، يقول خادمه أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يذخر شيئاً لغد^(٣).

وليس معنى هذا النهي عن ادخار المال أو الاحتفاظ به، بل بمعنى أنه لم يكن يحتفظ بالمال لديه وهو يجد من حوله من يحتاجه، بل كان يبادر إلى تقديمه له لسد حاجته؛ لأنه كان يعتبر نفسه خازناً للمال الذي بين يديه، ووكيلاً عليه، وقاسماً له: «إنما أنا قاسم والله يعطي»^(٤).

- وكان يشبه إقامته في هذه الدنيا بإقامة المسافر في بلدة نزل بها لبرهة من الزمن، فإذا عساه أن يفعل من أجل إقامته لتلك البرهة من الزمن هناك. يقول عبد الله بن مسعود: تآم رسول الله صلى الله عليه وسلم على حَصِيرٍ فقام وقد أتر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً،

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٥٧. وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) شرح الجامع الصغير للمناوي: ٢/ ٢٦٤.

(٣) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٦١. وقال: حديث غريب. وقال المناوي في شرح الجامع الصغير (٢/ ٢٦٤): إسناده جيد.

(٤) صحيح البخاري: باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١.

فبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: وما لي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى! فقال يا عمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» قال: بلى، قال: «هو كذلك»^(١).

- وكان من زهده صلى الله عليه وسلم أن النار لم تكن توقد في بيته في الشهر والشهرين مرة، ليس لأنه لا يملك! بل لأنه يُنفق ولا يُمسك لنفسه أو لعياله شيئاً من المال الذي يأتيه. فعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: ابن أختي: إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ناراً! فقلت: يا حنّال: ما كان يعيشتكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، كانت لهم منافع، وكانوا يمتحنون رسول الله صلى الله عليه وسلم من آبائهم فيسقيننا^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طأويًا، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير^(٣).

(١) المسند: رقم ١٢٤١٧. وقال المحقق: صحيح لغيره. وانظر أيضاً مجمع الزوائد: ١٠/ ٣٢٦.

(٢) صحيح البخاري: باب فضلها (الطبة) والتحرير عليها، رقم ٢٤٢٨.

(٣) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٦٠. وقال: حديث حسن صحيح.

ليأمرهما فيهم بما شاء، وأخبره ملك الجبال أن معه الإذن بأن يطبق عليهم الأخشيين -جبال مكة: أبو قبيس والأحمر- ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى وصبر، وقال: «بئس أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَخَلْقَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»^(١).

-ومن ذلك ما رواه طارق الحاربي، قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَتُحْيَا»، وَرَجُلٌ يَبْغُهُ بِالْحِجَابَةِ، وَقَدْ أَدْمَى عُرْفُوتَيْهِ وَكَعْبِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَبْغُهُ بِرُمِيهِ بِالْحِجَابَةِ. قَالَ: هَذَا عَبْدُ الْعَزْزِيِّ أَبُو هَلَبٍ^(٢).

وعن الحارث بن الحارث العامري قال: قلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم قد اجتمعوا على صابئ لهم، قال: فترئنا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل، والإيمان به، وهم يردون عليه ويؤذونه، حتى انتصف النهار، وأنصدم عنه الناس، واقبلت امرأة قد بدأ تحركها، تحمل قدحاً ومندبلاً، فتناوله منها، وشرب وتوصلاً، ثم رفع رأسه وقال: «يا بنيته حمري عليك تحرك، ولا تخافي على أهلك غلبة ولا ذلاً»، قلنا: من هذه؟ قالوا: زينب بنته^(٣).

(١) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فواقفت، رقم ٣٠٥٩.

(٢) صحيح ابن حبان: باب ذكر مقاساة المصطفى، رقم ٤٦٥٢٢ المسند: رقم ١٦٠٢٢.

وقال المحقق صحيح لغير.

(٣) المعجم الكبير للطبراني: رقم ١٠٥٢ و٣٣٧٣. قال في مجمع الزوائد (٦/ ٢١): رجاله ثقات.

فقال: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»^(١).

(٩)- صبر النبي صلى الله عليه وسلم:

الصبر خلق محمود، ومطلوب من كل مسلم ولكن بدرجات متفاوتة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وكلما كان الطموح في التقرب إلى الله أكبر، كانت الحاجة إلى الصبر أشد، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِضِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومن ثم كانت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التسليح بهذا الخلق أعظم، صبر على الطاعة، وقد رأينا كيف كان يعبد الله حتى تتورم قدماه الشريفتان، وصبر عن المعصية، وقد رأينا كيف أنه كان يستغفر الله من خواطر النفس ولحظات الغفلة في اليوم مائة مرة، وصبر على الأذى الذي يأتي من قبل الناس قولاً أو عملاً، وقد كان حظ النبي من هذا النوع من الصبر أيضاً كبيراً، فلقد أودى كثيراً من المشركين في مكة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، ومن صور الإيذاء تلك:

-أودى صلى الله عليه وسلم من قبل قومه مرات ومرات، ولكن أعظم تلك المرات كما أخبر يوم العقبة، فقد لقي منهم قدراً عظيماً من الصدم والطرود والأذى، فتوجه إلى بيته إليه شكواه وما يعاينه من كرب وشدّة، وإذا بجبريل ومعه ملك الجبال يأتيه من الله سبحانه، (١) سنن الترمذي: باب ٤٤، رقم ٢٣٧٧. وقال: حديث حسن صحيح.

لحدود الله . قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١٠) - مزاج النبي صلى الله عليه وسلم:

كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يمنح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليعلمهم أن في ديننا فسحة، فالنفوس تمل وتسام، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه عليه الصلاة والسلام (لم يكن يقول في مزاجه إلا حقاً) ^(١)، ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُسبي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعاتٍ وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار، بل كان يمنح على ندرةٍ ولصلحةٍ، أو لتطيب نفس المخاطب ومؤانسته ^(٢).

وفيما يلي صورٌ من مزاجه عليه الصلاة والسلام:

- وردَ أنَّ امرأةً عجوزاً سألته، فقالت: "يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز، فَوَلَّتْ تَبْكِي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴿٥٥﴾ جَعَلْنَاهُنَّ آيَاتًا ﴿٥٦﴾ عُرْيَا تُرْكِيًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]» ^(٣).

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في المزاج، رقم ١٩٩٠. وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الأذكار: ٢٥٨.

(٣) الشاهل الحمدي: ١٩٧، رقم ٢٤١. وقال العراقي في تخریج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/

١٢٩): أخرجه في الشاهل مرسلًا، وأسند ابن الجوزي في الوفا من حديث أسد بسند ضعيف.

- كما أنه عليه الصلاة والسلام أودى كثيراً من قبيل المنافقين وتكلموا في عرضه، وخصوصاً رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول حين تكلم في السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم صَبَرَ وَاحْتَسَبَ، ليس عن ضعف أو خوف! ولكن تضحيةً في سبيل الدعوة إلى الله، وتأليفاً للقلوب نحوها، فقد روت كتب السنة أن شجاراً وقع بين المهاجرين والأنصار، فتدخل الرسول وأنى الشجار، ولكن عبد الله بن سلول سمع بذلك، فاستغل الحادثة للنيل من الرسول والمهاجرين، فقال: أو قد فعلوا! والله لئن رجعتنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهُ لَا يَتَكَلَّمُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» ^(١).

بل إن ابنه واسمه أيضاً عبد الله أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرفي به، فأنا أحمل إليك رأسه. فقال له صلى الله عليه وسلم: «بل ترفق به وتحسن صحبته» ^(٢).

غير أن هذا الصبر وهذا الحلم كان يجتفي تماماً حين تنتهك حدود الشرح، فكان يتصرف بحزم وشدة ليكون زاجراً ورا دعماً للمنتهك

(١) صحيح البخاري: باب قوله: ﴿يُشْرِكُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾، رقم ٤٦٦٤.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٦٥٠.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، اجملنا على بعير، فقال: «أجملكم على وِلْدِ الناقة»، قال: وما نَصَّعَ بَوْلِدِ الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تَلِدُ الإبل إلا التُّوق؟»^(١)، أي أن ذهن السائل انصرف لدى سماعه (ولد الناقة) إلى أن الرسول سيعطيه بعيراً صغيراً لا يصلح للركوب، فاستغرب قائلاً: وماذا سأصنع بالصغير؟ فنبهه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الكبير أيضاً ولد الناقة، وإلا فمن أين أتى؟.

- وعن أنس بن مالك أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام، كان يُهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهدية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن زاهراً باديها، ونحن حاضر وه»، قال: فاتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يشتري هذا العبد؟»، فقال زاهر: تجديني يا رسول الله كاسداً، قال: «لكنك عند الله لست بكاسد»، أو قال صلى الله عليه وسلم: «بل أنت عند الله غال»^(٢).

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في المزاج، رقم ١٩٩١. وقال: حديث حسن صحيح غريب.
(٢) صحيح ابن حبان: باب المزاج والضحك، رقم ٥٧٩٠؛ شئان الترمذي: ١٩٦-١٩٧ رقم ٢٤٠.

(١١)- حياؤه صلى الله عليه وسلم:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(١)، أي: أن لكل دين طبعاً وسجية، وطبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه وجماله هو الحياء^(٢).

وهو خُلُقٌ يخص الإنسان وحده، ومن أفضل خصال الأخلاق وأجلها قدراً ونفعاً، ولولاه لم يستمر المرء له عورة، ولم يمتنع من فاحشة، بل إن كثيراً من الناس لولا الحياء لم يؤدِّ واجباً، ولم يراعِ حقاً لمخلوق. فإن من الناس من لا يردعه الدين، وإنما يردعه الحياء من الناس^(٣).

وفيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان شديد الحياء، حتى قال فيه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بأنه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خديرتها، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه^(٤)، والخنزير: الستر أو الخلوة. وإنما قال أبو سعيد ذلك: لأن حياء العذراء في الخلوة يشد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، ويضيف أبو سعيد أنه ﷺ لم يكن يواجه أحداً ويصارحه بما يكرهه منه لشدة حياؤه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر^(٥).

(١) سنن ابن ماجه: باب الحياء، رقم ٤١٨٢ و٤١٨٣. قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٢١٩): حسن لغيره.

(٢) فيض القدير: ٢/ ٥٠٨.

(٣) مفتاح دار السعادة: ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) صحيح البخاري: باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم ٥٧٥١.

(٥) فتح الباري: ٦/ ٥٧٧.

(١٢) - عدل النبي صلى الله عليه وسلم :

العدل هو المساواة في المكافأة في خير أو شر، والإحسان مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بتركه أو بأقل منه^(١)، أو بأسلوب آخر: العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان فوق العدل، والعدل واجب، والإحسان ندى وتطوع^(٢).

ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أنه كان المثل الكامل في الأمرين، ففيها يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، أو بإنصاف بعضهم من بعض، فإنه كان يأخذ بالعدل. وفيها يتعلق بالانصاف لنفسه من غيره، فإنه كان يأخذ بالإحسان.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: تَبَيَّنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا، أَنَاهُ ذُو الْخَوْبِصِرَةِ - وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْحَاكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا أَمْ اَعْدِلَ. لَقَدْ جِئْتِ وَخَيْرَتِ إِنْ أَمْ اَكُنْ اَعْدِلُ»، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِدُنْ لِي فِيهِ أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَضْحَايَا يَخْتَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجُورُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٣٢٥؛ فتح الباري: ١٠ / ٤٨٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١١٩.

ولم يكن يوجه الكلام لأحد بشكل مباشر أو يسميه باسمه إذا بلغه عنه ما يكرهه، بل يبهم ويعمم، فيقول: ما بال أقوام يصنعون كذا وكذا^(١)، لئلا يفضحه أو يجرح مشاعره.

- روى أنس رضي الله عنه أنه: لَمَّا تَزَوَّجَ الرَّسُولُ ﷺ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ، دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَهَيِّئُ لِقِيَامًا، فَلَمَّ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ؛ فَلَمَّا قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةً نَفَرًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَدْخُلَ، فَأَدَا الْقَوْمُ جُلُوسًا؛ ثُمَّ إِتَمُّوا قَامُوا، فَأَنْطَلَقْتُ فَبِحَيْثُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا؛ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبَتْ أَدْخُلُ، فَالْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَتَكَلَّمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ بْنِهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَقْسِمِينَ لِجِدِّي إِنَّ ذَلِكَ كَانَ لَكُمْ عَذَابًا وَنُصْحًا مِنَ اللَّهِ لَا يَسْتَجِيءُ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

غير أن حياء النبي ﷺ لم يكن يمنع من قول الحق والغضب له؛ لأن الحياء الذي ينشأ عنه الإحلال بحقوق الله أو العباد ليس بحياء في الحقيقة، بل هو عجز ومهانة^(٢).

(١) صحيح البخاري: باب من لم يوجه الناس بالعتاب، رقم: ٥٧٥٠.

(٢) فتح الباري: ١٠ / ٥٢٢.

يَعْرِفُ السَّهْمَ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

- ولما سرفت المرأة المخزومية أهدم قُرَيْشًا شأنها، فَقَالُوا مِنْ مِكْلِكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَمَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ جِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «اتَّشَعَّ فِي حَدٍّ مِنْ حَدُودِ اللَّهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي صَلَّيْتُ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأِيمَ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَتْ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»^(٢).

- وكان أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ - وهو من صالحِي الأَنْصَارِ وَنِقَبَائِهِمْ - يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ وَيُضَحِّكُهُمْ بِمَزَاحِهِ وَمَلِيحِ كَلَامِهِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ فِي الْمَجْلِسِ، فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ فِي خَاصِرَتَيْهِ بِعُودٍ، فَقَالَ: أَضْرِبْنِي عَلَى قَبِيصٍ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَبِيصِهِ. فَاخْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يَقِيلُ كَشْحَهُ (أَي؛ بَطْنَهُ فَوْقَ مَشْدِ الإِزَارِ). قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا بِأَرْسُولِ اللَّهِ^(٣).

(١) صحيح البخاري: باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٤١٤؛ صحيح مسلم: باب ذكر الجوارح وصفاتهم، رقم ١٠٦٢٣ و ١٠٦٤٤. قال النووي في شرحه على مسلم (١٥٩/٧): خبت وخسرت بفتح التاء وضمها، والفتح أشهر.

(٢) صحيح البخاري: باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٤٠٦.

(٣) سنن أبي داود: باب في قبلة الجسد، رقم ٥٢٢٤؛ السنن الكبرى للبيهقي: باب ما جاء في قتل الإمام وجرحه، رقم ١٥٧٩٨-١٥٨٠٠؛ المعجم الكبير للطبراني: رقم ٥٥٦ و ٥٥٧. وقد روي

- كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده سهم يعدلهم به. فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَةَ حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ وَهُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الصَّفِّ بَعْضُ الشَّيْءِ، فَطَعَنَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَطْنِهِ بِالسَّهْمِ، وَقَالَ: «اسْتَوِ يَا سَوَادُ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعْتَنِي وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَأَقْدَنِي، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَطْنِهِ، فَقَالَ: «اسْتَقْدُ»، قَالَ: فَاعْتَقْتَهُ فَقَبِلَ بَطْنَهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَضَرَ مَا تَرَى (أَي؛ الْمَعْرَكَةَ)، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ، أَنْ يَسَّسَ جِلْدِي جِلْدَكَ، فَدَعَا لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيْرٍ^(١).

- ومن صور عدله صلى الله عليه وسلم وإقامته لشرع الله تعالى ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بعض نساءه، فأرسلت إليه إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فصربت النبي هو في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة، فانقلقت، فجمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «عَارَتْ أُنْكُمْ، غَارَتْ أُنْكُمْ»، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند النبي هو في بيتها، فدفعها إلى النبي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت النبي

بأسانيد متعددة منها منقطع، ومنها ضعيف، ومنها قوي. انظر: المقاصد الحسنة: ٤٣٨ وكشف الخفاء: ٥٣/٢.

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٤١٠/٢.

السَّبْقَةِ»^(١).

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي، والحَبَسَةُ يُلْعَبُونَ بِحَرَاجِمٍ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى لَبِيبِهِمْ، ثُمَّ يَقُومُ مِنْ أَجْلِي حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَنْصُرِفُ، فَأَقْدِرُوا قَدْرَ الْحَارِجَةِ الْحَدِيدِيَّةِ السَّنِّ حَرِيصَةً عَلَى اللَّهْوِ.^(٢)

وحين سُئِلَت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته، أجابت: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فَإِذَا خَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ.^(٣)

وفي أحاديث أخرى كانت إجابتها أكثر تفصيلاً، فقد ذكرت صور خدمته صلى الله عليه وسلم في بيته، فقالت: كَانَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يُحْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَحْبِطُ نَوْبَهُ، وَيَرْفَعُ دَلْوَهُ.^(٤)

وفي حديث آخر: مَا كَانَ إِلَّا بَشِراً مِنَ الْبَشَرِ، كَانَ يَفْعَلُ نَوْبَهُ، وَيَحْبِلُ سَنَانَهُ، وَيَحْلُمُ نَفْسَهُ.^(٥)

(١) سنن النسائي: باب مسابقة الرجل زوجته، رقم ٨٩٤٥؛ سنن أبي داود: باب في السبق على الرجل، رقم ٢٥٧٨.

(٢) صحيح مسلم: باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، رقم ٨٩٢.

(٣) صحيح البخاري: باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج؛ رقم ٦٤٤.

(٤) المسند: رقم ٢٤٧٩٤ و ٢٥٣٤١؛ صحيح ابن حبان: باب ذكر ما يستحب للمرأة أن لا تأتق من العمل المستحقر في بيته بنفسه وإن كان عطيها في عين البشر، رقم ٥٦٧٦. قال محقق الكتاتين:

حديث صحيح.

كسرتها»^(١).

هذه بعض صور عدله وإنصاف الناس من نفسه، أو من بعضهم البعض، وأما صور إحسانه فقد مر معنا بعض الأمثلة كعاملته لقرش بعد فتح مكة، ومن آذوه في جسده الشريف، أو بكلامهم فيه أو في عرضه، ولم يقتص منهم بل عفا وأصفح.

(١٣)- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله :

حث الرسول عليه الصلاة والسلام على حسن التعامل مع الأهل، فقال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٢)، وكما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، فقد كان خير الناس لأهله في طيب كلامه معهم، وحسن عشرته لهم، وإكرامه لمشاعرهم، ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر وهي جارية فقال لأصحابه: «تقدموا، ثم قال: «تعال أسألتك»، فسألته فسبته على رجلي، فلما كان بعد، خرجت أيضاً معه في سفر، فقال لأصحابه: «تقدموا»، ثم قال: «تعال أسألتك يا رسول الله وأنا الذي كان»، وقد حملت اللحم، فقلت: وكيف أسألتك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: «لتفعلن»، فسألته فسبته فقال: «هذه بتلك

(١) صحيح البخاري: باب العيرة، رقم ٤٩٧٧.

(٢) سنن الترمذي: باب فضل أزواج النبي، رقم ٣٨٩٥. وقال: حسن غريب صحيح.

نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْسِيَانِ وَيَعْتُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرُ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»^(١).

وكان ذات مرة يُقبَلُ الحسن وعنده الأقرعُ بن حابسٍ. فقال الأقرعُ: إن لي عَشْرَةَ مِنْ الْوَالِدِ مَا قَبَلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا! فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يُرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(٢)، وعندما قال له أحدهم مستغرباً: قَبِلْتَوْنَ الصَّبِيَّانِ! فَمَا نَقَبْتَهُمْ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَأَمَّا لَكَ أَنْ تَرََعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»^(٣).

فبين أن تقبيل الولد ومداعبته وإدخال السرور على قلبه من الدين، وما يجبهه الله، وأبعد الناس من الله القلب القاسي.

(١٥) - أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع العبيد والخدم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيماً بالعميد والخدم غاية الرحمة، ويكرهم غاية الإكرام، وكان يوصي المسلمين بهم خيراً. والمواقف والمشاهد التي تدل لذلك وتؤكدته كثيرة جداً منها:

- كان زيد بن حارثة عبداً لخدمته، فأهدته للنبي صلى الله عليه وسلم بعد زواجها، وقدم والده إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب إعتاقه ويبيدي استعداده لشراؤه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سيناديه ويخبره،

(١) سنن أبي داود: باب الإمام يقطع الخطبة للأمر بجدت، رقم ١١٠٩؛ سنن الترمذي: باب مناقب الحسن والحسين، رقم ٣٧٧٤. وقال حسن غريب.

(٢) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبيله ومعاقبته، رقم ٥٦٥١.

(٣) صحيح البخاري: باب حسن الخلق والسخاء، رقم ٥٦٩١.

فقبل والده بذلك، وسرَّ به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخبره بين البقاء عنده أو اللحاق بالوالد، فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً، قال والده: ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية؟ وعلى أهلك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً^(١)، فانصرف والده واطمأن على وضع ابنه، وتبناه الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصبح ينادى بزید بن محمد حتى نزل في القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).

- كان أسامة بن زيد بن حارثة يُلقبُ بحبِّ رسول الله وابن حبه، وذات مرة أمره النبي صلى الله عليه وسلم على غزوة، فوجد بعض المسلمين في نفسه شيئاً من ذلك، ربما لصغر سنه، وربما بالنظر إلى والده وكونه مولى، فلم يعجبهم أن يؤمَّروا على شيوخهم ووجهاتهم، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقام فيهم خطيباً، وقال: «إِن تَطَعْتُمْ فِي إِمْرَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعْتُمْ فِي إِمْرَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ كَلْبِيئاً لِلْأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ كَيْنَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنْ هَذَا كَيْنَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٣).

(١) زاد المعاد: ٣/ ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٤٢٥.

(٣) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٤٢٦.

(١٦) - هديه صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان:

لم يكن قلب النبي صلى الله عليه وسلم المقعم بالرحمة والشفقة ليستشي الحيوانات من تلك الرحمة والشفقة، ومن ثم وجدناه يخضعها بأحكام شرعية توصل لذلك. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلته فأحسنوا قتله، وإذا دبخته فأحسنوا الذبح، ولْيُجِدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَةً، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(١)، وقد قال النووي في هذا الحديث الشريف بأنه من الأحاديث الجامعة لقواعد الاسلام^(٢).

وكان بعض الفتيان يلجؤون على سبيل اللعب إلى نصب بهائم للرمي إليها، فرأهم بعض الصحابة، فأنكروا عليهم لما فيه من إيذاء وتعذيب لها يتنافى مع رحمة الإسلام، من ذلك: أن أنس بن مالك رضي الله عنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قوماً قد تصبوا دجاجاً يرمونها، فقال: نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تصبوا البهائم^(٣).

ومرَّ عبد الله بن عمرَ يفتيانٍ من قُرَيْشٍ قد تصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئةٍ من نبيهم، فلما رأوا ابنَ عمرَ تفرَّقا. فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول

(١) صحيح مسلم: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم ١٩٥٥.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٠٧ / ١٣.

(٣) صحيح مسلم: باب النهي عن صبر البهائم، رقم ١٩٥٦.

وحين أهم قريشاً أمر المخزومية التي سرفت، لم يجد من يمكن أن يشفع فيها إلا أسامة بن زيد لما يعلمون من مكانته لدى النبي صلى الله عليه وسلم^(١).

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بحسن معاملة العبيد ويقول: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوْلَكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلُفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»^(٢)، وكان يأمر بمناداتهم بما يشعرهم بكرامتهم، فيقول: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمْتِي كُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ وَكُلُّ نَسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَّتِي وَقَتَايَ وَقَتَايَ»^(٣).

- ويقول أنس رضي الله عنه: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أَفٌّ، وَلَا لَمْ صَنَعْتُ، وَلَا الْأَصْنَعْتُ^(٤).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا صَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا أَمْرًا، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نَزَلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْهَكَ شَيْءٌ مِنْ حَرَامِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٥).

(١) صحيح البخاري: باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٤٠٦.

(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي: العبيد إخوتكم فأطعموهم، رقم ٢٤٧٠.

(٣) صحيح البخاري: باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أو أمتي، رقم ٢٤١٤، صحيح مسلم: باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة، رقم ٢٢٤٩، واللفظ لمسلم.

(٤) صحيح البخاري: باب حسن الخلق والسخاء، رقم ٥٩٩١.

(٥) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٣٢٨.

البشرية اليوم ظامئة، وهي بأمس الحاجة إلى إحياء القيم التي جاء بها رسولنا الكريم.

إن أعظم خدمة نقدمها لديتنا الحنيف، وأيسر سبيل للدعوة إلى الله، هو أن نَعْرِفَ الآخرين بنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، أن نَعْرِفَهُمْ بأخلاقه وشماله وسجاياه، ليتخذوه أسوةً ومثالاً أعلى في حياتهم كما يجب عليه وبرضاه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

نسأل الله أن يخلفنا بأخلاق نبيه الكريم، وأن يعيننا على نشرها والدعوة إليها.

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ رُوحٌ غَرَضًا^(١).

وغفر الله لرجل في كلب رآه «يَهْتُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خَفَهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدَيْهِ ثُمَّ رَفَعِي فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِن لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٢).

وعُدَّتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ^(٣).

وختاماً نقول: إن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإن المجلدات العظام لن تحيط بوصفه، وإن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا في أخلاقه، فإنهم لن يبلغوا ثناء الله عليه وعلى أخلاقه: وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ، فالإله العظيم عندما يصف خُلُقَ الحبيب بأنه عظيم، فإذا عسى أن يبلغ وصف البشر لأخلاقه صلى الله وسلم عليه.

غير أن الذي يجب أن لا نغفل عنه، هو السعي في إحياء هذه الأخلاق النبوية في حياتنا، فتحتل بها، ونربي عليه الأجيال، وندعو المسلمين إلى التحلي بها. بل نسعى لنشرها بين غير المسلمين، خصوصاً في هذا الوقت الذي تكاد فيه الأخلاق الحميدة والمثل العليا أن تختفي من حياة الناس، وتصيح المادة والمصلحة والمنفعة هي الغاية القصوى من الوجود. إن

(١) صحيح مسلم: باب النهي عن صبر البهائم، رقم ١٩٥٨.

(٢) صحيح البخاري: باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٣٤.

(٣) صحيح البخاري: باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٣٦.